كلمة وحدث

أرغن يصدح من جديد

ولدت في مدينة برلين، عاصمة الإمبراطورية الألمانية عام ١٨٩٢، فلقد جمعت أخشابي من أشجار البلوط المنتشرة في ضواحي المدينة، كما وصنعت صفاراتي في أحد أشهر المصانع الألمانية وتدعى Dinse ... ومنذ اليوم الأول لولادتي كنت كالطفل المدلل، فبالرغم من صغري، وبالرغم من وجود العديد من آلآلة الأرغن الأكثر كبراً وحجماً وثمناً، إلا أنني نلت قدرا كبيرا من العناية والاهتمام وحظيت باحترام ليس من بعده احترام... وعندما تساءلت عن سر هذا الاهتمام العجيب، قيل لي بأنني إنما صنعت لأعزف في مدينة بيت لحم، مهد المسيح الرب، في كنيسة جديدة، لم تدشن بعد، ولطائفة إنجيلية عربية فلسطينية... ولكن في الإمبراطورية العثمانية... كان هذا صعبا علي، إذ لم أكن أفقه شيئا في السياسة، كان عالمي هو برلين، هناك سكن الإمبراطور وليم الثاني، وكانت مدينة برلين تشهد حركة عمران واسعة.

إذ شيدت القصور وشقت الشوارع العريضة والطويلة وزرعت على أطرافها الأشجار الباسقة، وظن الجميع أن برلين إنما تشاد لتبقى... وفي صباح أحد الأيام الباردة، إذ بي أفاجأ بعمال المصنع وهم يفككونني قطعاً... قطعاً وإرباً.. إرباً، يضعونني في صناديق خشبية كبيرة، ثم يغلقون علي، ثم يحملونني على ظهورهم، يضعونني من بعدها على عربات تنقلني إلى مكان، قيل لي أنه خط السكة الحديدية... عربات حديدية تسير على قضبان طويلة، لا بقوة إنسان ولا حيوان، بل بقوة الفحم الذي يحرق، فقد قيل لي بأن هذا هو اختراع العصر، اختراع سيغير وجه التاريخ... آخ... كم كان مزعجاً الجلوس في ذلك القطار... وكم كانت صوت صفارته ناشزاً لأذني اللتين تعودتا الإيقاع السليم... قضيت أياما وليالي، قطعت الجبال والسهول لأصل من بعدها إلى مدينة يقال لها البندقية، مدينة شيدت على المياه... هناك تم إنزالي وسمعت الناس من حولي يتكلمون لغة غريبة، لم تكن الألمانية التي اعتدت سماعها... قضيت هناك أياما وليالي، أنتظر وصول ما يسمى بالسفينة، اختراع آخر من اختراعات الإنسان، اختراع قديم ولكن كان قد جدد، فاجتمعت هذه السفن تنقل البضائع من بلاد إلى بلاد...

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠٠١/١/١.

وأخيرا جاء اليوم المنشود، حطت السفينة في البندقية، فحملني الحمالون إلى ظهرها، وسمعت صفارتها تنطلق ومن ثم رحنا نعوم على المياه... وانتابني الخوف الشديد، فقد قيل لي أن دوار البحر مخيف ومزعج وهو كذلك، خاصة عندما كانت الأمواج تضرب بنا يمنة ويسرة، فرحت أصلي، وظننت أنني لن أصل إلى مقصدي بل سأدفن في رحم هذه السفينة الإيطالية... ولكن لطف الله بنا، وسمعت أصوات الركاب وهم يهتفون بأنهم راحوا يرون شواطئ فلسطين، وبأن الفرج قريب، ولكن قبل اليابسة بقليل توقفت السفينة، ولما سألت عن السبب قيل لي أن ميناء يافا كثير الصخور فلا تقدر السفن الكبيرة على الإقتراب منه، وصعد إلى السفينة رجال الجمارك الأتراك، راحوا يفتشون البضائع، وراحوا ينكلون بالركاب طمعاً ببخشيش (رشوة نقدية)، وراحوا يتحججون بأن صفارات الأرغن كالبنادق لا يسمح بإدخالها إلى فلسطين... فحتى ذلك الوقت لم يكن قد دخل فلسطين إلا أرغن واحد ووحيد...

على كل حال وبعد أخذ ورد ومد وجزر، وبعد أن دفع القبطان بخشيشا للأتراك، أنزلوني من عن ظهر السفينة وأركبوني في قارب صغير وجاءوا بي إلى ميناء يافا، مدينة صغيرة قيل لي أنها عروس البحر، رأيت باعة السمك منتشرين هنا وهناك، كما رأيت المترجمين ينتظرون أن يستأجرهم أحد للترجمة... فموظفو الجمارك كانوا من الأتراك العثمانيين، وقيل لي أن لغة البلاد الرسمية هي التركية، أما عامة الشعب فكانوا يتكلون لغة أخرى وقيل لي أنها العربية... رحت أسترق السمع لأعود أذني على هذه اللغة التي بها سيسبح الله في الكنيسة التي سأنصب فيها... غير أن هذه اللغة لم تعجبني كثيرا، فقلت في نفسي : لا بد وأن الزمن سيجعلك تتعلمها وتفهمها وتتذوقها، على كل حال، حملوني مرة أخرى ووضعوني على عربة تجرها الخيول، وراحوا يجوبون البلاد... كان الطقس حاراً، لم أتعود عليه، ولم تكن صفاراتي قد تعودت عليه، شعرت بالزكام... ولكن كانت المناظر خلابة، فسهول خضراء وشمس مشرقة وسماء زرقاء، ولكن كان واضحا أن البلاد فقيرة، فالقرى بائسة تكاد لا ترى فيها عمران، وإنما أطلال مهدومة، قيل لي أن حكم الأتراك للبلاد لأربعمائة سنة قد أذلها، وأن الضرائب قد أفقرت المزارعين... وبعد مسيرة يوم وصلنا إلى خان يقال له، خان باب الواد... هناك استرحنا، وبتنا الليلة... وفي اليوم التالي عزمنا الرحيل، ولكنني فهمت أن الطريق من باب الواد إلى القدس محفوفة بالمخاطر، فهي أولا طريق جبلي وعر، والحمولة كبيرة على الخيل، لا نعرف إن كنا سنصل قبل غروب الشمس... وإن لم نصل فقطاع الطرق كثيرون، وكان أصحاب الخيل يخافون أن يباغتهم شيخ يقال له أبو غوش، عرف ببطشه وبقطع الطريق على المسافرين،

ينهب ثرواتهم... خاف الجميع علي... وخافوا أن تقطع أخشابي لتستعمل لإشعال نار لقهوة الشيخ الغريب، وأن تنهب صفاراتي وتستخدم لضرب الأسرى والمتهمبين... ولكن قيل لي بأن ذلك الشيخ كان لا يتعرض لإنجيليين بسبب هدية كان المطران غوبات الأسقف الإنجيلي الثاني في البلاد المقدسة قد منحه إياها... وفعلا مررنا من قرية أبو غوش بسلام، وصعدنا الجبل الأخير لنرى من بعيد مدينة القدس... سمعتهم يغنون ويرتلون لها في برلين، فظننتها أكبر بكثير، وأجمل بكثير، حتى قبتها كانت باهتة اللون، ولم أرى في فضائها الكثير من الكنائس فتعجبت... وقلت في نفسي ... هل من الممكن لبيت لحم أن تكون أكثر بهاء... وأعلى شأنا... وتابعنا المسير...

بالأمس رحنا نستمع إلى قصة ذلك الأرغن الذي ولد في القرن التاسع عشر في برلين، وقضى القرن العشرين بكامله في فلسطين وهاهو اليوم يشهد بزوغ سنة جديدة، وقرنا جديدا وألفية ثالثة...

كان الأرغن قد وصل عام ١٨٩٣ عندما وصل محملا على الخيول إلى القدس وتركناه هناك في طريقه إلى بيت لحم... وقلت له حدثنا يا أرغن عن أول انطباعاتك عن مدينتنا بيت لحم... فقال... بعكس انطباعاتي عن القدس، فقد رأيت بيت لحم أكبر مما توقعت... فنحن نرتل دائما عن بيت لحم، القرية الصغيرة. ولكنني فوجئت أن عدد سكانها قد تجاوز الأربعة الآلاف، كما وكانت بها حركة عمران رائعة بسبب الإرساليات المسيحية الأوروبية التي انتشرت هنا وهناك على أطراف المدينة...

كما وكانت الكنيسة التي وضعت فيها، كنيسة الميلاد، من أجمل كنائس البلد بل والمنطقة برمتها، ولكن ما أحزنني هو قلة أعداد الطائفة والتي بلغت الأربعين عضوا فقط، كما ولم يكن ترتيلهم حسبما توقعت، بل جاء باهتا بالرغم من محاولات القسيس آنذاك Butcher والذي كان يسمونه بالعربية «اللحام» وهي الترجمة العربية لاسمه.

هنا قاطعت الأرغن قائلا... إن قصتك مثيرة، ولكن أخشى أن مفهومك عن الوقت يختلف عن مفهومنا اليوم، فلقد عشت أنت في زمن كان القسيس اللحام يعظ بها مدة أربعين دقيقة دون أن يصيب الطائفة ملل أو كلل... كما وكان الحكواتي يجمع الناس يقص عليهم قصص ألف ليلة وليلة لساعات طويلة، دون أن يبدوا حراكا...

ولكن في عصر التلفاز الوضع تغير... فالعظة أصبحت قصيرة تدوم لعشر دقائق فقط، فإذا أكملت قصتك على الوقع ذاته، أخشى أن تظن الطائفة بأن قصتك ستصبح كالمسلسلات المكسيكية، لا من حلقتين بل من مائة حلقة وحلقة، فهل بإمكانك الاختصار...

قال وماذا تريد أن تعرف عني...

قلت خبرني عن رحلتك الأخيرة إلى الولايات المتحدة...

فلقد ولدت في أوروبا، ونشأت في آسيا، وقمت برحلة إلى أمريكا ولا أظن أن الكثير من أبناء جلدتك قد مروا بالتجربة ذاتها... قال بالصواب نطقت... لقد غيرت تلك الرحلة حياتي برمتها...

لقد كانت حياتي صعبة... وعشت بمرض مزمن في رئتي، بل كان عندي مشاكل في التنفس، ففي القديم... القديم كان الشباب يصعدون إلي لينفخوا يدوياً في رئتي الهواء كي أستطيع التنفس والصفير، ولكن ومع مرور الوقت تراجعت حالتي هذه، فأتوا لي بطبيب ألماني، قال أن هناك محركا كهربائياً لا بد وأن يربط بي فيضخ الهواء آلياً إلى رئتي... فربطوني به... وتحسنت حالتي كثيراً، إلا أنني عدت وانعكست وصار الجمهور يلاحظ تدهوراً في حالتي الصحية، فقد خشن صوتي بل ومع مرور الزمن أصبح صوت الشهيق والزفير أعلى عندي من صوت الترنيم، فقلت في نفسي... ما الفائدة، لقد خدمت هذه الطائفة لمائة عام، فاركن واسترح ونم في أمان...

وهكذا صار، فلقد انزويت على نفسي وانطويت على ذاتي وعشت وحيدا، لم يزرني فيها أحد بل راح الغبار يتكاثف علي رويدا... رويدا، وقلت في نفسي لا بد أن يأتي يوم يظن القسيس بأنك قد أصبحت عبئاً على الكنيسة ومصدر إزعاج فيتخلص منك فتنتهي قصتك في المزبلة...

ولكن وفي أحد الأيام زارني طبيب أمريكي قال بأن هناك أملا في شفائي ولكن الأمر مكلف... ورزقني الله بالعديد من المتبرعين الذين جعلوا ما تيسر لهم لينفقوا على عملية قيل لي أنها ستعيد الشباب لي... وفعلا ففي شهر شباط من عام ٢٠٠٠م جاء الطبيب وشرحني إلى قطع، ودفنت في صناديق نقلت بواسطة سفن حديثة ليست كتلك التي جئت بها فلسطين، فنقلت من ميناء حيفا إلى ميناء بوسطن، ومن ثم بناقلات سريعة وعملاقة إلى ولاية منيسوتا حيث وضعت في مزرعة بل معمل وهناك أجريت لي على يدي جراح يدعى رولاند من عائلة روتس، عملية جراحية استمرت زهاء ستة أشهر، حيث

أصلحت صفاراتي القديمة الخربة، وزرعت لي أعضاء جديدة كثيرة، ونلت حياة جديدة... وأصبحت في ليلة وضحاها، خلايا جسدي تعمل بالتقنية الرقمية، وهي تقنية القرن الحادي والعشرين...

جرى دم جديد في عروقي وكان الله قد كتب لي أن أعيش قرناً آخر...
وهنا رأى الأرغن في عيني فرحة ممزوجة بالحزن، فقال لي أنا أفهمك... فأنت تفرح معي بأنني قد تجددت، كما يفرح الأب مع ابنه الضال الذي كان ميتا فعاش، وكان منزوياً فانتعش...

ولكنني أفهم حزنك... ربما تود لو كان بإمكان الطب البشري أن يزرع في الإنسان خلايا رقمية فيعيد له شبابه...
بل لا تتصور يا بني ما يدور أحيانا كثيرة في مخيلتي... دوري صعب ودعوتي ليست بالسهلة... أن أعزف لطفل وليد جديد يوم معموديته «يا رب طفل قد أتاك...» وأن أعزف له يوم زواجه «أحضر هنا يا ربنا...» ومن ثم أعزف له يوم دفنه «أمكث معي يا سيدي...»

ليس سهلاً أن تتعود على أناس، تحبهم، ومن ثم تفارقهم... ولكن هذه سُنّة الحياة، وأعزي نفسي بالقول بأن عزفي وترنيمي إنما يريحان النفس ويدخلان إليها السرور...

لله درك... فنحن الآن على أبواب عام جديد، وقد رحت تتحدث عن الموت...
قال: «من لا يفهم الموت، لا يعرف الحياة... » .

قلت حدثني عن أصدقائك... هل كان لك أصدقاء أكثر...
وهنا صمت الأرغن قليلاً، أخذ نفساً عميقاً وكأنه راح يرجع بمخيلته إلى حياته القديمة ليتذكر، ومن ثم قال لي:
لقد منحني الله أصدقاء كثيرين، أخلصوا لي كل الإخلاص...
بل إن حياتي من دونهم هي هباء ليس إلا... قلت: « أنا أعرف أن الصداقة أمر شخصي، قد لا تريد أن تتحدث عنه علانية، قال لا بل دعني أحدثك باختصار عن بعض اللحظات التي لا تنسى لي مع أصدقائي...»

فهنا ومع صوت صفاراتي ثم نظم العديد من الترانيم التي ترنمونها دون أن تعرفوا تاريخها... اسألوني أحدثكم...
فلا أنسى مثلاً الفرحة التي غمرت المرحوم القس داود قربان عندما نظم

ترنيمته المشهورة :
« يا نفس قومي بالعجل ها قد بدت شمس الصباح
خلي التواني والكسل واسعي إلى رب الصلاح »

لقد صرخ وهو يعزف على صفاراتي وجدتها... وجدتها، وكأن المرحوم يزورني كل يوم في الصباح الباكر، وكأن اليوم لا يحلو له بعيدا عن أنفاسي... بل وهل تعرف أن هذا القس بعينه كان قد نظم في هذه الكنيسة وعلى أنغامي
ترنيمته المشهورة:
«كنت أسيرا في الأنام والعدل قاض بالقصاص
ففكني فادي الأنام وقال لي نلت الخلاص...

وينقصني الوقت كي أحدثك عن ترانيم القس سعيد عبود، ووديع خوري وإبراهيم ---؟ ووديع عطا، وإن نسيت فلن أنسى المرحوم توفيق سرور خاصة بجوقته الرنانة في أسبوع الآلام، ولا جوقة أبواقه الرخيمة صباح عيد القيامة. وماذا أقول عن المرحوم فهمي الهواش وكرستا نصرالله، أو عن الأستاذ ميخائيل زبانة أو فهد أبو غزالة أو جورج أبو دية وغيرهم... بل يسرني أنه قد أصبح لي أيضا أصدقاء جدد من الولايات المتحدة الذين أرجو أن ألتقيهم وأطرب على معزوفاتهم...

قلت: لله درك يا أرغن... قصتك جميلة تشد لها النفوس، ولكن وقد أوشكت العظة على الانتهاء، هل من نصيحة في صباح هذا اليوم الأول من السنة الجديدة، هل من نصيحة تسديها إلينا؟
لم يتوان الأرغن، بل نظر إلي متفحصاً إن كنت سأعمل بنصيحته،

وقال لي من دون تردد:
«الحياة غنوة... الحياة غنوة، قد تملأها بالبكاء والعويل، وأعرف أنكم معشر القوم الفلسطيني تحبون البكاء على الأطلال»، وكما يقول المثل الدارج، «لا يعجبكم عجب ولا صيام في رجب». ولكن الحياة غنوة «بإمكانك أن تجعل منها كابوساً ... صراعات زوجية في الصباح والمساء، مشاحنات ومخاصمات مع الأهل والأصدقاء، كراهية وبغضاء، عبء وحرب وصدام... ولكن الحياة غنوة»
تستطيع أن تجعل أنغامها حلوة، أنت العازف وأنت الناظم، وأنت المايسترو...
أنت تتحكم بزمام الأمور... إذا لم يعجبك اللحن القديم،
إجلس وأكتب لحناً جديداً...

ودعني أنهي بنصيحة ثانية:
أكثر من الترنيم... فالترنيم يجدد قوة الإنسان، إذا كنت فرحاً فترنم... وإن كنت مغرماً فستصفر... ولكن إن كنت حزيناً، وحيداً، مريضاً، خائفاً، حائراً، محتاجاً، تعباً فترنم أيضاً... فالترنيم هو سر الحياة... لذلك فالأبدية سنقضيها بالترنيم لا تجعل شيئاً في الدنيا يسلبك ترنيمك... بل اجعل وقت ترانيمك يكون هو وقت حياتك.
وهنا قاطعته: وقلت له: "أرى يا أرغن أنك واعظ محترف...
وسأعدك: أنني سأرجع لأسمع منك مرة أخرى...
ولكن رفقاً بطائفة القرن الحادي والعشرين، فقد أطلنا عليها... أستودعك الله...
وتركته وكلماته تطن في أذني...
«لا تسمح بأن يسلبك أحد ترنيمتك...»
وقلت في نفسي... هذا سيكون شعاري للعام الجديد...

آمين.

حرب غزة مرة أخرى

أشعياء ٦٥:١٧-٢٥

في الأسبوع الماضي باغتتنا حرب من حيث لا ندري، فجأة وبدون سابق إنذار رأينا اشتباكات وقذائف وصواريخ تتناثر في سماء أرضنا...
ورأينا قتلاً ودماراً وتيتّماً...

والكتاب المقدس يشبّه الحروب أحياناً بالمخاض الذي يأتي للمرأة الحامل... فهو يأتي فجأة ولا يستطيع أحد أن يعرف الساعة أو الدقيقة التي يأتي فيها. والحروب سمة من سمات منطقتنا العربية... كانت كذلك أيام أشعياء النبي الثالث، والذي خطّ هذه الآيات... خطّها بعد أن اجتاحت الثورات البابلية مدينة القدس، فدمرتها ودكّت حصونها وأسوارها، وأحرقت هيكلها وسبت ما سبت وأسرت من سكّان البلاد ما أسرت، ويتّمت من يتّمت.

الحروب ما زالت سمة مهمّة من سمات شرقنا العربي... والحروب مكلفة أكثر جداً مما نفتكر أو نظن... يقال أن الحرب الأخيرة على غزّة كلّفت إسرائيل زهاء الأربعة مليارات شيكل... وإسرائيل لا تستطيع الاستمرار في الحروب لو دفعت هي وسكانها تكاليف الحرب من جيوبهم، ولكنهم يحصلون على المال والعتاد مجاناً... ويقال أن الحرب الأخيرة كلّفت غزة أيضاً حوالي المليار شيكل من بنية تحتية ودمار وخراب.

ولكن كلفة الحرب هي ليست كلفة مادية فقط... بل كلفتها الإنسانية هي الأكبر. فالحروب تقود الى التّشرد واللجوء... والكثيرون منّا يتذكرون نكبة ١٩٤٨ عندما كان أغنياء بيت لحم والقدس يبنون قصوراً لهم في البقعة ومياميلا والطالبية، وفي ليلة وضحاها اضطرّوا إلى الهروب وإلى ترك كل شيء وراءهم، في الحرب واحد يبني والآخر يسكن. ولا يقتصر هذا على الفلسطينيين فحسب... فمن ينظر الى العراق سيرى الشيء ذاته... مئات الآلاف شُرّدت... وبيوت قُصفت ودُمّرت... وأُخرى احتلّت من قِبل المجاهدين.

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في أحد القيامة بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٨.

وينقضي الوقت للحديث عن سوريا، فأعداد المهجّرين وصلت إلى عشرات الآلاف... ومن يذهب إلى الأردن هذه الأيام قد يقابل بعضهم ممن ترك بيته وأرضه ورزقه وهامَ على حدود الدول المجاورة. والكلفة البشرية والنفسية قد تكون الشيء الأخطر، فالحروب تقود إلى أمراض نفسية كثيرة... أطفال يُصيبها الرّعب ونساء يُعتدى عليهنّ جسدياً ونفسياً... ورجال يخسرون كل شيء ولا يقدرون أن يدافعوا عن ممتلكاتهم، فيصيبهم اليأس والقنوط وخيبة من الذّات لا تلتئم جراحها.

لابُدّ أن نبينا أشعياء الثالث اختبر هذه جميعها عندما اجتاحت القوات البابلية مدينة القدس. والسؤال الأخطر الذي خطر على بال أشعياء النبي هو نفس السؤال الذي يدور في أذهاننا «أما آن الأوان لشرقنا العربي أن يحظى بالسلام؟»، «أمكتوبٌ لنا أن نولد وأن نعيش وأن نموت على دق طبول الحرب؟». فها قد بلغتُ الخمسين من العمر وعشت عشرة حروب منذ ولادتي، بمعدّل حرب كل خمس سنين. أما آن لليل الحرب أن ينجلي؟ أما آن لفجر السّلم أن ينبلج؟.

لا بد أن نبيّنا أشعياء كان قد فقد الأمل في السلام مثلنا، ولا بد أنه غسل يديه من هذه المنطقة... وظنّها ملعونة ومكتوب لها أن تبقى في دوامة الحروب... ولكن هنا يتدخل الله مخاطباً أشعياء بقوله، «هاأنذا خالق سموات جديدة وأرضٍ جديدة» «هاأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً». الله يبشر أشعياء النبي ليس فقط بشرق أوسط جديد ليس على شاكلة الشرق الأوسط الجديد الذي كتب عنه شمعون بيرس... ولا على شاكله الشرق الأوسط الجديد لكونداليسا رايس... ولا على شاكله الشرق الأوسط الجديد الذي نرى طلائعه في مصر مرسي حيث يحل الحزب الإسلامي مكان الحزب الوطني بدون أي تغيير يُذكر...

الشرق الأوسط الذي يتحدث عنه الله يصوغه بهذه الكلمات: «لا يُسمع فيه صوت بكاء ولا صوت صراخ»، ولا يكون هناك طفل يموت ولم يفرح بطفولته... الصبي يموت ابن مئة سنة شبعان أياماً، ويرى ولد الولد يركضون حواليه وليس في المهجر. ويتابع بقوله: «ويبنون بيوتاً ويسكنون فيها... لا يبنون ومن ثم يهاجرون فيسكن آخر...» ويغرسون كرماً ويأكلون ثمارها... لا يأكل ثمارها العدو أو الأجير.

لا يتعبون باطلاً... فيتعبون، ولكن أموالهم لا تأكلها النيران... وبيتهم تدمرها القذائف... ومتاجرهم تسرقها الزعران. ولا يلدون للرعب... أطفالهم يكبرون في

سلام ورخاء وفي أمن وأمان. لا يؤذون ولا يهلكون في كل جبل قدسي. هذا هو الشرق الأوسط الجديد الذي يتحدث عنه الله. هل هذه يوتوبيا؟ هل هذه أحلام يقظة؟ هل هذه أحلام وردية لا تمت للواقع بصلة؟.

اللاهوت يسمي هذه «رؤية نبوية» prophetic imagination أي أن النبي يستطيع أن يرى المستحيل ممكناً... والمحال مقبولاً... ولكنه في الوقت ذاته يعبّر عما في مكنونات النفس البشرية من توق للسلام وللعدالة... وعما يجول في الذات الإلهية من أفكار نحو أبناء البشر.

لا بُد أن نعترف أن السلام الدائم والشامل والكامل والعادل غير ممكن على هذه الأرض... فالإنسان يبقى إنساناً! له أطماع... والحزب له أطماع... والفرد بدوره طمّاع... ولذلك لا يُمكن أن نصل إلى حالة من الاستقرار الأبدي في هذة الأرض... لذلك اختارت الكنيسة هذه القراءة الأحدية لأحد الحياة الأبدية. ولكن السلام النسبي ممكن... الاستقرار النسبي ممكن... لذلك ينهي أشعياء النبي رؤيته بصورة جميلة:« الذئب والحمل يرعيان معاً... والأسد يأكل التبن كالبقر... أي لا وجود لغازٍ ولا لإمبراطورية غاشمة، بل هناك حسن جوار بين شعبين، بحيث لا يعتدي أحد على الآخر. بل يتقاسمان الطعام والشراب، الأرض والفضاء. وما ينقص الشرق الأوسط اليوم في خِضمّ ما يُسمّى بالربيع العربي هو رؤية نبوية لغدٍ مشرق، يكون للإنسان فيها أمان وكرامة وحقوق لا تُنتهك بل تُحترم».

اضرابات

أشعياء ٥٨: ١-٩

أحيانا كثيرة، أيها الأحباء، يصلي ويبتهل الإنسان إلى الله، أحيانا كثيرة يتقدم الإنسان من إلهه بطلبات ودعوات ، وكثيرا ما لا يستجيب الله لهذه الدعوات ولا لهذه النداءات ولا لهذه الطلبات، ويدخل الإنسان في دوامه من القلق والشك والعذاب، ويبدأ بالتساؤل: لماذا لا يستجيب الله لصلواتنا؟ مع اننا نركع أمامه ونصلي لأجله؟ لماذا لا ينظر الله لحالنا ويمد لنا يد العون؟ لماذا لا يأبه الله بمتطلباتنا فيعطينا سؤل قلبنا؟

أمثال هذه الأسئلة راحت تصارع العديد من أبناء الشعب اليهودي زمن اشعياء النبي. فلقد مر هؤلاء بعد جلاء الاحتلال البابلي عن بلادهم بأوقات عصيبة وظروف قاسية ومريرة وضاقت بهم الحال، ولم يبق لهم أي بصيص من رجاء بالخلاص. وبينما هم على هذه الحال من اليأس والقنوط والعذاب، تذكروا وعود إلههم بأنهم إن طلبوه سيجدوه. وان صلوا وصاموا فسيرفق بحالهم، فقرروا أن يطلبوا الله، قرروا أن يسيروا حسب وصاياه، فاعترفوا بذنوبهم وتدينوا وانتظروا نورا فاذا بظلام، ضياء فلم يروا إلا سواد. رغم الصوم ورغم الصلاة لم تتغير أوضاعهم ولم تتحسن أحوالهم بل ظلّوا يعيشون في حالة من الاضطراب والتعب والضياع. بقائهم على حالهم أدخلهم في دوامة من العذاب راحوا يحتجون على الله وراحوا يعترضون بوجهه قائلين: لماذا صمنا ولم تنظر؟ ذللنا أنفسنا ولم تلاحظ؟»

ما أشبه حال هؤلاء اليائسين بحال العديد من أبناء شعبنا اليوم: أسئلة كثيرة راحت تراود نفوسنا وراح يرددها جيراننا وأصدقاؤنا: لماذا لم تفلح انتفاضتنا بالرغم من مرور سنتين على نضالنا؟ لماذا لم نتمتع حتى الآن بالحرية على الرغم من كل تضحياتنا؟ لماذا لم تتبدل أحوالنا رغم طول كفاحنا؟ حقا لقد استطعنا في السنتين الماضيتين أن نسمع صوتنا للعالم، حقا لقد رأى العالم بعينيه عظم مصابنا ومذلتنا وآلامنا، وراح يصدر التصريح تلو التصريح تضامنا معنا.

---

* عظة ألقيت فيكنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ١٩٩٠/٢/٢٢.

ولكن ها هو الآن قد نسينا، تركنا على حالنا وولى عنا إلى أوروبا الشرقية. حقا لقد استطاعت الانتفاضة أن تقوي من عزيمتنا في البداية ، ولكن ها هو الإحباط والروتين قد راح يتسرب إلى حياتنا فيشل قوتنا ويقتل فينا نشوتنا، ويدفعنا إلى التساؤل عن سر فشلنا؟

حقاً هناك أسباب خارجة عن إرادتنا أملتها علينا التغيرات العظيمة التي يمر بها عالمنا. ولكن هناك أسباب لفشلنا نحن مسئولون عنها. ولمعرفة الأسباب يدخل الله في حوار معنا، إنه عين الحوار الذي نقرؤه في سفر أشعياء: هناك يقوم الله للإنسان الذي راح يتذوق طعم فشله.

الصيام وحده لا يكفي، الإضراب عن الطعام وحده لا يرضيني، التمسك بالشريعة والتقيد بحرفيتها لا يفرحني. فأنتم إذا فعلتم هذا فإنكم تتمسكون بالحرف لا بالروح، بالمظهر لا بالجوهر. أتريدون أن تصوموا فحسناً تفعلون إن كسرتم خبزكم الذي توفرونه للجياع: أتريدون أن تصلّوا حسنا تفعلون ان فتحتم قلوبكم للمحتاج والتائه فهذا هو الصوم الذي يطلبه منا الله: أن نعيش كالمحتاجين لنشعر مع المحتاجين. وهذه هي الصلاة المقبولة، أن نرفع يدنا إلى الله في العلا وأن نمد يدنا الأخرى في الوقت نفسه لأخينا الإنسان.

أجل أيها الأحباء، سياسة الإضرابات وحدها لا تكفي، قد تضر ولا تفيد وقد تفيد أكثر من مستفيد، لابد لنا من خطوات إيجابية، خطوات بنّاءه، تساعد المحتاجين، وتعطي القوة للمتعبين وتحرر اليائسين.

قال الرب لأشعياء: «أَلَيْسَ هذَا صَوْمًا أَخْتَارُهُ: حَلَّ قُيُودِ الشَّرِّ. فَكَّ عُقَدِ النِّيرِ» . إن أردنا أن نرى ثمر أتعابنا فلابد من قطع كل نير، وكم من نير يكبل أبناءنا وجيراننا ونفوسنا. كم من العمال مهضومة حقوقهم في مصانعنا، يكدون ليل نهار مقابل ملاليم يتقاضونها؟ كم من مسؤول في مؤسساتنا يتحكم بقراراتها كالدكتاتور ؟ كم من تاجر وحرفي يتلاعب بالسعر والكيل ويمتص أموال الفقراء من أبناء وطنه؟ الخطيئة- الخطيئة هي ذلك الداء الذي يمنع تقدمنا، الخطيئة هي ذلك الحجاب الذي يحجب صوت الله عنا، خطيئة رؤسائنا و خطيئة أولادنا و خطيئة أعمالنا هي التي تبعد الحق عن ربوعنا. مازلنا بعيدين كل البعد عن الأمانة في البيت والعمل والمصنع، ومازلنا نفتقر إلى الحق والنظام المخطط في العديد من مدارسنا، مستشفياتنا ومؤسساتنا، مازال في نفوسنا مارد يتربع على عرش قلوبنا ويقيد تطورنا ويحول دون تغييرنا.

لقد صدق الله، أيها الأحباء في تشخيص مرضنا. إن أردنا أن ننجح في أعمالنا فلابد من تغيير جذري في فكرنا ووعينا. لابد من تغيير نظرتنا وتقييمنا للكثير من أمور حياتنا. لابد من وقفة صادقة مع أنفسنا ومحاسبة دقيقة لنتائج سياستنا. مازالت أمامنا فرصة لتغيير مسار حياتنا ولتجديد قوانا وفكرنا ونضالنا.
لقد صدق الله، أيها الأحباء إذ قال بأن البر يرفع شأن الأمة، وعار الشعوب الخطية. أجل فالأمانة ترفع من شأننا أما الظلم والخداع والمراوغة هي التي تشل تفكيرنا وتقيدنا. هنا تكمن سر المسيحية أيها الأحباء، هنا تكمن قوتها وعظمتها. هذا هو سر قوة الإيمان المسيحي، إنه إيمان قوي يحرر. فلقد صدق المسيح إذ قال: تعرفون الحق والحق يحرركم.

إيمان لا يشل حركة التفكير وحركة أبنائه، لا بل يساعد الإنسان كل يوم على محاسبة نفسه، ويقوده للاعتراف بخطيئته ويعطيه انطلاقة جديدة لمسار جديد وقدرة جديدة. لا مكان هنا للروتين بل للإيمان الذي يهيمن ويستولي على القلوب ، الإيمان العامل بالمحبة.

ليت الله يفتح قلوبنا في هذا الصباح فندرك أهمية إيماننا المسيحي، لعالمنا ولمجتمعنا ولقضيتنا. عالمنا متعب لأنه عطش إلى ثمار الروح، إلى ثمار البر والى ثمار المحبة. هذه الثمار لا يمكن أن يتحلى بها سوى المؤمن الذي يعيش مع المسيح ويحيا بالمسيح ويثق بالمسيح.

آمين

الإرهاب

أشعياء ٢: ٢-٤

هذه القراءة هي من القرآت المعروفة في الكتاب المقدس...
فكم من الشباب لا يعرف الترنيمة التي تقول...
هلم نصعد لجبل الرب نتعلم من طرقه
إلى بيت إله يعقوب ونسلك في سبله

وهذا القرار كلماته مأخوذة حرفياً من سفر أشعياء النبي...
كلمات أخرى من هذه القراءة انتشرت انتشاراً النار في الهشيم
في أوروبا في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي...

حركة السلام والبيئة الخضراء أخذت من كلمات أشعياء
النبي شعاراتها: يطبون سيوفهم سككا...
ورماحهم مناجل...
السكة والمنجل صارا شعار هذه الحركة ترفعه في كل مظاهرة
ضد سباق التسلح بين الشرق والغرب...

ولكن هذه القراءة التي تعاد مرتين هناك وتكاد تكون حرفية...
مرة هنا في سفر أشعياء النبي الأصحاح الثاني...
والمرة الأخرى في سفر ميخا النبي الأصحاح الرابع..

أشعياء النبي هذا كان مقدسياً من سلوان... متزوجاً من مقدسية
وكانت زوجته هي الأخرى نبية...
وكان له ابنان...
دعاه الله للنبوة سنة ٧٣٦ قبل المسيح...
وبالرغم من حالة الإستقرار النسبية التي كانت سائدة على زمنه
إلا أنه اختبر حادثتين غيرتا مجرى حياته وكانت بمثابة الخلفية لنبوءاته...

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٨.

الحادثة الأولى كانت الزحف الأشوري على شمال فلسطين
والذي تم سنة ٧٢٢ ق. م. واحتلال شمال فلسطين من الدان ومن مشارف رام الله.
الحادثة الثانية التي أثرت على اشعياء كانت وبلا شك محاصرة القدس
من قبل سنحاريب سنة ٧٠١ ق. م.

بالمقابل نرى أشعياء يتنبأ عن واقع آخر...
أنه يرى أمم كثيرة تزحف نحو القدس ولكن لا لتحارب بل لتتعلم
من طرق الرب ولتسلك في سبله...
أنه يرى أمم كثيرة متنازعة ولا بد أنه كان يقصد
الأشوريين والمصريين والفلسطينيين والآراميين...
تأتي جميعها إلى القدس طالبة حكم القضاء العادل من الله...
وكأنه يحلم بيوم تتجه فيه الشعوب إلى القضاء لحل مشاكلها
بدل أن تحلها في ساحة الوغى... والله نفسه سيكون هو الحاكم
العادل الذي ينصف لشعوب كثيرين...
إله إشعياء ليس بالإله المتحيز الذي يقف مع شعب ضد الشعوب الباقية،
بل هو إله عادل يقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين...

إشعياء النبي اختبر - وعن قرب - معنى أن يحيا الإنسان في زمن الحرب...
وكيف أن آلهة الحرب تأكل الأخضر واليابس زمن الحرب حيث يضع المزارعون
سككهم ومناجلهم جانبا...
يهملون الأرض والزراعة والاقتصاد ويذهبون ملتحقين بسلك
الجندية ليموتوا من أجل الوطن...
مقابل هذا الواقع أراد إشعياء النبي أن يظهر واقعا آخر
يحدث فيه العكس... الرجال يطبعون السيوف الماضية
إلى سكك لحراثة الأرض... والرماح إلى مناجل للحصاد...
إشعياء يتحدث عن ثورة اقتصادية لا يستهان بها...
استبدال اقتصاد الحرب باقتصاد التنمية...

ولكن حتى تتم هذه الثورة الخضراء... هناك مسؤولية
تربوية لذلك نراه يقول: « ولا يتعلمون الحرب في ما بعد ».
لقد صعق النبي إشعياء وهو يرى الجيل تلو الجيل يتعلم الحرب...
فحديث الشارع أضحى عن الحرب... ولهو الأطفال في الشوراع
عن الحرب... وخيرة الشباب تؤخذ للحرب...

الناس تخرج من انتفاضة لتدخل في الأخرى...
والتهدئة لا تصمد لأكثر من أشهر لأن الجميع يعشق الحرب...
وفي الاحتفالات بالتوجيهي يفجر الكبسون وكأن الأطفال
قد اشتاقوا إلى سماع أزيز الرصاص... وأصوات القذائف...
أجيال تتعلم الحرب...
وفي الجانب الإسرائيلي... فإن اقتصاده مبني على الحرب...
إسرائيل أكبر خامس دولة في العالم في بيع السلاح...
وكل شاب وشابة عليهم أن يخدموا في الجندية وأن يلبسوا
الكاكي ويتعلموا فنون الحرب...
وفي العالم المتقدم يتعلمون الحرب... أكثر من نصف الأموال التي
تنفق على الأبحاث العلمية تنفق من أجل الحرب...
وأكثر الإختراعات توظف تباعاً في آلة الحرب...

هذا ما حصل مع نوبل، العالم السويدي الذي اخترع البارود
ورأى أن اختراعه هذا يستخدم من أجل الحرب... ورأى الويلات التي سببها
هذا الإختراع... فندم وقبل أن يموت ترك وصية أوصى فيها أن يذهب ريع أمواله
وتركته لجوائز السلام ولخلاص الإنسان ونهضة الحضارة البشرية...

نوبل الذي اخترع هذا السلاح الفتاك أراد أن يغير
هذا الواقع فطبع من سيف البارود جوائز للسلام...
ولا يتعلمون الحرب في ما بعد... هنا تنتهي كلمات إشعياء...
وإذا ما قارنا بينها وبين كلمات النبي ميخا...
نرى أن النبي ميخا يضيف جملة أخيرة لا تجدها عن أشعياء والتي تقول:
« بل يجلسون كواحد تحت كرمته وتحت تينته ولا يكون من يرعب... »

ميخا كان في الشمال من قرية الجديدة قرب بيت جبرين
(بقرب لأهل مخيم العزة) واختبر ما لم يختبره إشعياء النبي...
رأى بأم عينه الأشوريين يحتلون مدينته...
وعرف إحدى نتائج الحرب التي لم يختبرها أشعياء...
فالاحتلال قاد الكثيرين إلى الحروب والنزوح...
زرعوا كرومهم ولم يأكلوا منها... ولم يتأت لهم أن يجلسوا
في ظلها... بل آخرون غرباء هم الذين جلسوا هناك...
في الحرب تحدث الويلات... بيوت يتركها أصحابها خوفاً ورعباً...

ومن ثم يأتي المحتل أو البلطجي ويسكن فيها...
حدث هذا في لبنان ويحدث اليوم في فلسطين...
الحرب تعني أن يجلس الإسرائيلي في حافلة النقل مرعوباً...
ويستقل الإنجليزي القطار مذعوراً... ويركب الأمريكي في الولايات المتحدة الطائرة خائفا..

ميخا أدرك أن الحرب تجلب معها انفلاتاً أمنياً وأن زمن السلام لا يعني أقل من الأمان...
«ولا يكون من يرعب».
هل يمكن أن تتحقق هذه النبوات في عالمنا هذا؟
شهود يهوة يؤمنون أن بإمكانهم إقامة الجنة على هذه الأرض...

إشعياء وميخا متفقان أن هذا لا يكون إلا في آخر الآيام...
الإنسان سيبقى هو الإنسان ميال إلى الحرب...بفعل الخطيئة...
ولن تستطيع أي دولة أن تخلق الإنسان المسالم...
المجتمع ككل لن يتخلى يوماً عن حضارة الحرب...

هذا هو الواقع...
الحرب والموت هما العدوان الأخيران اللذان لن يقضى عليهما إلا في العالم الآخر... في آخر الأيام...

ولكن آخر الأيام لا تعني نهاية العالم فقط...
آخر الأيام هو زمن ميلاد المسيح أيضا...
« الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء بأنواع وطرق كثيرة..
كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه...
نبوة إشعياء تمت في المسيح...
وهي تتم في حياة كل إنسان يؤمن به...
الإيمان يحطم دوامة الرحب والعنف...
الإيمان يخلق واقعاً جديداً...
المسيحي يحيا حضارة الحياة في عالم الحرب والموت... »

آمين

الأزمة المالية العالمية

لوقا ١٦: ١-١٢

مثل هذا اليوم من أصعب الأيام فهماً للعهد الجديد بل هو الأصعب في حياتنا... لذا فكّرت ملياً قبل أن أكتب هذه العظة... فكرت أن أختار قراءة أخرى بديلة عن هذا المثل (مثل الإنسان الغني)... وعبر القرون العشرين الأخيرة نرى اللاهوتيين يحاولون فك لغز هذا المثل وكل واحد منهم أدلى بدلوه... ولكن بعد تفكير طويل قررت أن أدلي بدلوي أيضاً وأن أبدي رأيي وأن أجرب ،علني أفلح في فك هذا اللغز... المثل يروي قصة إنسان غني... لا بد وأنه كان ملاك أراضٍ وكان قد أوكل أحدهم بإدارة بعضٍ من أملاكه... وفي يوم من الأيام جاء أحدهم و اشتكى على هذا الوكيل... قال أن الوكيل يقضم على موكله من ماله وخيراته... بل ويبذر أمواله بمنة ويسرى... أي أنه لا يتعامل مع أموال موكله وكأنها أمواله بل راح يظن أن الأمر كسب في كسب، فأخذ يصرف المال بلا حسيب أورقيب... يتصرف في أموال مديره كأنها أمواله. وما أن تبادر إلى مسامع الموكل أمر وكيله إلا وبعث في طلبه للحضور حالاً وسريعاً للقائه، وجابهه في الأمر وقال له: «أعط حساب وكالتك لأنك لا تقدر أن تكون وكيلاً بعد!» أي سلم كل شيء وأعيده إلي... الحسابات... الأمانات... الموجودات... يعطيك العافية!

إلى هنا المثل قصة عادية تحدث كل يوم... ولكن وفجأة يتغير اتجاه القصة... الوكيل يجلس مع نفسه «يضرب أخماساً بأسداس» ويفكر «راح أصفي بالشارع»، «لازم أدبر حل»، «لا بد من شيء ما». أرجع وأعمل عاملاً بالأجر اليومي يعتبر إهانة لي ولم أعد أقوى على فعل ذلك... أجلس أستعطي وأترجى الناس أن يشغلوني بعد أن كان الناس يطلبون رضاي فهذا عيب. ما العمل... فجاءته فكرة...

أرسل في طلب المزارعين الذين كانوا يحرثون الأرض ويزرعونها «متضمنين الأرض»، وقال للأول -وكان يهتم بأشجار الزيتون-: كم تنكة زيت عليك هذه السنة لصاحب الأرض؟» فقال: مئة تنكة! فقال له الوكيل: حسناً أنا سأساعدك، لأنني أعرف وضعك وأشعر معك: اجلس اكتب خمسين تنكة، وأنا سأسامحك

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠١١/١١/١٣.

بالنصف الآخر... إلتزاماتك كثيرة وأنت بحاجة إلى مال إضافي. راح المزارع يقبل يدي الوكيل ويشكره على كرمه وعلى كرم موكله وهو غير عالم بما يجري. وراح يخبر الناس كم هو كريم هذا الوكيل وذاك الموكل... ثم أرسل الوكيل في طلب مزارع آخر كان يزرع حقول القمح وسأله: «كم شوال قمح عليك أن تعطي لصاحب الأرض هذا العام!» فأجاب»مئة شوال». فقال اجلس اكتب ثمانين شوالاً». أنا سأسامحك بالعشرين الباقية... أنا أعلم أن ابنك قد شارف على الزواج وهذا يتطلب مصاريف إضافية... ونحن نشعر معك... فراح المزارع يترضى ويدعي بالصحة والعافية وطول العمر للوكيل وموكله... ورجع إلى بيته يتحدث عن كرم السيد.

إلى هنا أيضاً قد يحدث هذا المثل هنا أو هناك... ولكن المفاجأة الكبرى تأتي في الختام إذ نقرأ: «فمدح السيد الغني وكيل الظلم إذ بحكمة فعل». هنا المفاجأة : إن الرجل الغني الملاك لم يستشط غضباً من الوكيل لأنه سرقه مرتين: مرة عندما راح يتصرف في أمواله ومرة أخرى عندما أعفى المزارعين من جزء هام من الغلة وسامحهم. بل على العكس مدح الإقطاعي وكيله إذ إنه بحكمة فعل!

وهنا السؤال: هل يعقل أن يمدح إنسان غني وكيله لأنه سرق أمواله؟
«وشطب للمزارعين ديونهم؟» وهل يشجع يسوع بمثله هذا على السرقة والنهب؟ فما فعل الوكيل ليس «بحكمة بل بحماقة» وهناك فرق بين الإثنين!
هذه هي المشكلة اللاهوتية العويصة التي تواجه اللاهوتيين! ماذا قصد يسوع؟

وهناك عدة أجوبة:
الجواب الأول يحاول أن يرى في الوكيل شخصاً يحارب الإقطاع ويشفق على الفلاحين... وكأن المسيح هو روبن هود... يقتطع من الأغنياء ليعطي للفقراء... أشك في هذا الحل...

وهناك حل ثاني: إن الوكيل عندما أعفى المزارعين من جزء مما عليهم إنما عزا هذا الكرم لا لشخصه بل لموكله مما جعل صيت الغني يعلوأمام الناس. وهذا ما أفرح الغني... أي صار الكل يغني له... مما زاد من أسهمه في البلده وجعل منه إنساناً محبوباً بعد أن أعطى للفقراء هذه المكرمة... والناس في الشرق يحبون المكرمات (انظروا المكرمات الرئاسية هذه الأيام في دول الخليج والسعودية. الناس تخلف بحياة الحكام على سخائهم).
حل معقول!

ولكن هناك حل ثالث: الحل الثالث أن الغني أعجب بموكله ليس لأنه سرقه، بل لأن الوكيل فكر في المستقبل حتى في أحلك اللحظات... فكر بخطوتين إلى الأمام... أدرك أن عليه أن يؤمّن مستقبله وإلا هلك لا محالة... وهذا هو المغزى الروحي لهذا المثل: فالله هوالغني والوكيل هو الإنسان... فالله ائتمن الإنسان على إدارة خيرات الأرض... فكل ما نملك حولنا منه، وهو أوصانا أن ندير هذه الموارد... ولكننا نبذرها، لا نستخدمها بحكمة... كم هي الموارد الطبيعية التي تهدر يومياً: «نفتح صنبور الماء ونتركه مفتوحاً على رسله، أو نترك الضوء منيراً... طالما أننا لا ندفع الفاتورة من جيوبنا»، أو انظروا إلى ديون الدول الأوروبية اليونان... وإيطاليا... والبرتغال... لقد تصرف هؤلاء بأموال أبنائهم... اليوناني كان يتقاضى معاش ١٤ شهر بدلاً من ١٢، يتهرب من الضرائب... يسرق الدولة حتى أفلست... المشكلة أن كل هؤلاء لم يفكروا أن أبناءهم هم من سيدفع هذه الديون وسيغرقوا فيها وأنهم قد قضوا بالكامل على مستقبل أبنائهم من قصر نظرهم.

الحكمة هي أن نتصرف اليوم وعيوننا على المستقبل... أن نفكر كيف سنؤمن المستقبل لأبنائنا... هذه هي الحكمة الحقيقية. ولكن هناك أيضاً بعداً آخر. كيف يمكن أن نؤمن آخرتنا بعد أن أخطأنا؟ ويسوع يقول: كيف تتعامل اليوم مع الموارد التي أوكلت إليك فهذا له تأثير على آخرتك... أو من يرحم الناس يرحمه الله... ومن لا يبخل، لن يبخل الله عليه... المشكلة ان الكل يتصرف بأمواله ومدخراته والموارد الطبيعية التي وضعت تحت تصرفه بشكل أناني ووقتي ودون التفكير في المستقبل، إن الله سيسألنا يوماً: «أعط حساب وكالتك!» ماذا عملت بما ائتمنت عليه؟ لهذا اختارت الكنيسة هذه القراءة لهذا الأحد قبل الأخير من السنة الكنسية: إنما لتؤكد لنا أنه لا بد أن نعترف بالأموال والمهام التي أوكلت لنا بالنظر إلى الآخرة... هذه هي الحكمة الحقيقية التي نتعلمها من هذا الوكيل الظالم! نرجو ألا يكون أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور!

الإنتفاضة الأولى

أشعياء ٥٠: ٤-٩

صراع طويل دار في نفسي وأنا جالس بالأمس في غرفتي...
أمواج متلاطمة كانت تدور في خلدي بينما كنت أكتب عظة هذا اليوم.
كنت قد ابتدأت ومنذ الصباح بالتأمل في كلمات العظة. فما أن حان وقت المساء إلا وكنت قد أتممت تأملاتي، كنت قد جمعت أفكاري، ولم يبق سوى أن أضع الأفكار في قوالب من حروف وكلمات. كنت سأتحدث اليوم إليكم عن يسوع الملك وعن الفرق بينه وبين الملوك والرؤساء الأرضيين. ولكن قبل أن أبدأ بكتابة عظتي، ذهبت كعادتي لأستمع لنشرة الأخبار المصورة لأرى ما يحدث حولنا ولأطلع على ما يجري في عالمنا.

وكم كانت دهشتي كبيرة وأنا أرى مدينة بيت لحم وقد بدت متألمة باكية، كم كانت دهشتي عظيمة وأنا أرى شوارع بيت لحم، وقد تحولت إلى ساحات حرب دامية، حقا إننا كثيرا ما نشهد اشتباكات حامية بين قوات الجيش وبين شباب بلدتنا. ولكن شتان ما بين هذه الاشتباكات وبين اشتباك الأمس. وقد ازدادت دهشتي بل وغضبي وأنا أرى أفراد الجيش وهم يقبضون على فتاة من فتيات طائفتنا لم تبلغ بعد سن الثالثة عشرة.
وصرخت ألم يجد هؤلاء الجنود من فريسة لهم سوى هذه الفتاة المسكينة؟
ألم تنج هذه الفتاة الصغيرة من قبضة الجنود الهمجية؟
وانتابني قلق على مصيرها ولم يهدأ لي روع إلا بعد أن تأكدت من أنهم قد أطلقوا سراحها وأخلوا سبيلها.
وعدت إلى غرفتي...عدت لأخط عظتي. ولكن هيهات ...هيهات
أن تتحرك يدي...أو أن تنساب أفكاري!
وكيف تتحرك يدي وقد انقبضت أنفاسي
كيف تنساب أفكاري وقد تشتت ذهني؟
وشعرت بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقي...وأحسست بثقل العبء المتراكم فوق ظهري...وصرخت: إلهي...ماذا سأقول لشعب أصبحت دماؤه مهرقة؟ ماذا أعظ في شعب أصبحت حياته محفوفة بالأخطار ؟

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في أحد الشعانين بتاريخ ١٩٨٨/٣/٢٧.

وتساءلت: إلهي...هل ستعطيني غدا لسان العالم الذي كتب
أشعياء عنه بأنه يغيث المعيي بكلمة؟ أنت ترى طائفتي منهكة،
تعبة وقلقة! أنت ترى حال طائفتي كحال شعبي لا تعرف ما يخبئه
لها غدها. فالغموض يكتنف مصيرها والخوف يحيط بمستقبلها.

إلهي...لن أستطيع مساعدتها إلا إذا فتحت لي أذني ووضعت كلامك
في فمي...لن أصعد غدا إلى المنبر لأنطق بكلام يذهب سدا مع الريح،
لن أفتح فمي لأهذي بكلام يبقى دون أي تأثير!
إلهي أعطني كلاماً يمنح قوة للضعيف، وأملا لليائس الحزين.
أعطني عظة تكون بمثابة الدواء للمريض، عظة تغير الفكر وقلوب المستمعين!

وهأنذا أقف اليوم أمامك، أيتها الطائفة العزيزة،
أقف أمامك لأسألك سؤالاً واحداً:
هل تتعطشين إلى كلمة من الله تقوي عزمك وتعزي نفسك؟
هل أتيت إلى هذا المكان تنشدين كلمة تغير حالك وتضمد جراحك؟
أم أنك ستخرجين من هذه الصالة كما أتيت،
خالية الوفاض، منهكة القوى، خائرة العزيمة؟

عظة اليوم هي للمتعبين وللمتألمين... إنها للمتهمين والمضطهدين...
فإن كنت أحد هؤلاء فلك عندي كلمة...
قراءة اليوم تفتح أعيننا لنرى إنساناً بذل ظهره للضاربين وخده للناتفين.
قراءة اليوم ترسم لنا صورة إنسان احتمل البصق والتعيير..
إنسان مكروه من الجميع، إنسان يضطهده الصغير والكبير...
إنه إنسان يرى نفسه وقد أصبح في قفص الاتهام وأصابع الجميع إليه تشير...
إنسان رأى العالم كله ينقلب ضده،
إنسان رأى نفسه وحيدا ليس له من يحامي عنه...

قد نكون قد مررنا في مثل هذا الموقف الصعب المهين...
قد نكون قد صحونا يوما لنرى أنفسنا متروكين وليس لنا من معين..
قد نكون قد صحونا يوما لنسمع ألسنة الناس تحط من قدرنا، تغتابنا وتلعننا..

أو لا يذكرنا هذا بموقف المسيح زمن الاعتقال والتعذيب؟
أو لا يذكرنا هذا بذلك الحبيب الذي طالما ذاق الآلام المرة والإهانة والتنكيل؟

ومع ذلك لم يخف ولم يتسلل الشك إلى قلبه... رغم ذلك لم يتراجع ولم يدع الخوف يجد طريقا إلى نفسه، بل مضى قدما على طريق الصليب... ثقة عجيبة كانت تملأ قلب ذلك المخلص العظيم... لم تكن هذه ثقة بالنفس بقدر ما كانت ثقة بإلهه...أجل أيها الأحباء، لقد احتمل المسيح الآلام والجراح، احتمل اللطم والعذاب لأنه وثق بإلهه.
وكأن لسان حاله يقول: السيد الرب ينصرني، لذلك لم أخجل ولذلك جعلت وجهي كالصوان وأنا عالم بأني لن أخزى...

لقد وثق المسيح بأن الله نفسه سيحامي عنه، لقد وثق بأن حياته ليست في أيدي الناس ولا في أيدي الرؤساء، بل في يدي الله...
لقد أحس المسيح بأن الله معه، بأنه قريب منه.
فصمم على مواجهة العالم كله: مبرري قريب فمن يخاصمني..
فلنقف معاً، من صاحب محاكمتي فليتقدم.
ها إن السيد الرب ينصرني فمن يؤثمني؟
يا لها من ثقة عظيمة بالله. الثقة بأن مصيرنا إنما هو في يد الله، الثقة بأن حياتنا إنما هي في يدي الآب.

ما أحوجنا أيها الأحباء إلى مثل هذه الثقة في هذا الوقت بالذات... في هذا الوقت الذي بدأ فيه الخوف يتسلل إلى قلوبنا وبدأ اليأس يعشش في أفكارنا. في هذا الوقت الذي أصبحنا نشعر فيه بخطورة الموقف وصعوبة الدرب، ما أحوجنا إلى الثقة الكاملة بالله.

فحياتنا ليست رهن الناس، إنما هي ملك الله...
مصيرنا ليس في يد الحكومات، إنما هو في يد
إله السماوات، لذلك فلتطمئن قلوبنا ولنوثق صلاتنا ونفوسنا بهذا الإله...

إذ حصن منيع ربنا — سيف ودرع للبشر
عون لنا وملجأ — في أي ضيق وخطر

آمين

الجدار والميلاد

لوقا ٢:١٠-١١

ماذا لو لم يولد المسيح قبل ألفي عام؟
ماذا لو ولد في هذا العام بالذات ؟
كيف ستكون يا ترى قصة الميلاد؟
وكيف كانت ستنسج خيوط أحداثها في مثل هذه الأوقات؟

كانت هذه إحدى الأسئلة التي طرحت عليّ من قبل صحفي إبان زيارتي الأخيرة إلى الصين. فأجبت، لو ولد المسيح في هذا العام لتغير تسلسل قصة الميلاد... إذ عندها لما استطاع يوسف ومريم من أن يدخلا مدينة داود لكونهما من سكان الناصرة، يحملون هوية إسرائيلية ويحظر دخولهما إلى مدن الضفة الغربية.

لو ولد المسيح اليوم، لولد على حاجز ٣٠٠، في الشطر الإسرائيلي منه، كما يولد العديد من الأطفال الفلسطينيين على الحواجز بلا طبيب أو مشفى أو قابلة قانونية. لو ولد المسيح اليوم لعلقت أمه ويوسف على جهة من الجدار، بينما بقي الرعاة في الجهة الأخرى، لا يبعد الطرفان عن بعضهما البعض إلا أمتارا قليلة، ولكنها بعيدة كبعد المشرق عن المغرب. لو ولد المسيح اليوم، لما استطاع المجوس أن يروه ليقدموا له هداياهم، فالمجوس فرس، وهم اليوم جزء من محور الشر، لا تعطى لهم تأشيرات دخول أو خروج. لو ولد المسيح اليوم لبقي هؤلاء عالقين على جسر الأردن، يرون النجم وقد راح يبتعد عنهم رويدًا رويدًا ولكنهم لا يستطيعون اللحاق به ليروا بأم أعينهم كوكب الصبح الإلهي العجيب.

لو ولد المسيح اليوم، لما استطاع يوسف أن يأخذ الطفل وأمه ويذهب إلى مصر، فغزة مغلقة تماماً، وما من ممر آمن يعبرون منه، وحتى معبر رفح كان سيوصد في وجوههم، ليبقوا هائمين تائهين مطاردين. لو ولد المسيح اليوم لكتبت الصحافة الغربية أن يسوع ويوسف وأمه قد هربوا خوفاً على حياتهم لا من هيرودوس بل من الإسلاميين. لو ولد المسيح اليوم لاسترسلت الصحافة الغربية في شتم هيرودوس الإمبريالي الذي لا قلب له ولا رحمة.

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في عيد الميلاد بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٢٥.

لو ولد المسيح اليوم لقامت على اسمه مئة مؤسسة غير حكومية، فلسطينية وإسرائيلية وعربية وأجنبية... يرصد بعضها الانتهاكات التي تعرض لها بالصوت والصورة، ويجمع بعضها الآخر التبرعات كي يبنوا له خيمة يسند رأسه فيها. ولراحت مؤسسات أُخر تتسول لتعليمه ولزواجه ولدفنه ولطرحت مؤسسة أخرى اسمها باسمه للتداول.

لو ولد المسيح اليوم لأُقيم على الحاجز عند مكان ولادته كنيس يهودي لذكرى تشريد طفل يهودي على يد الطاغية هيرودوس النازي، ولأقام هناك الرهبان الفرنسيسكان ديراً لتخليد الطفل يسوع وللإعتناء بالأيتام والمشردين، ولشيّد وعلى مرمى حجر من هناك مسجد إسلامي يحمل اسم الشهيد البطل عيسى الناصري، الذي ما كان يهودياً ولا نصرانياً بل مسلماً حنيفاً.

حقاً لو ولد المسيح اليوم، لتغيرت أحداث قصة الميلاد بحيث لا نعد نتعرف إليها.

ولكن العبرة ليست في المظهر بل في الجوهر، فبالرغم من كل الإختلافات لبقيت بشارة الملائكة على حالها بلا تغيير أو تبديل، ولرددت جوقة الملائكة نشيدها:
« لا تخافوا... فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب...
أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلصٌ هم المسيح الرب.»

أجل أيها الأحباء:
بشارة السماء للأرض هي هي... لا تخافوا لا تدعوا الخوف يعشش في جنبات قلوبكم... ويسيطر على عقولكم... ويتحكم بأفعالكم ويردعكم عن أداء رسالتكم... لا تخافوا... فلا خوف في المحبة... بل المحبة تطرد الخوف إلى الخارج. لا تخافوا من الغد لأن الغد يهتم بما لنفسه، ولأن المسيح سيبقى هو هو الأمس واليوم والى الأبد. لا تخافوا من أن تشهدوا للحق.. فالحق سيحرركم... وإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا.

لو ولد المسيح اليوم لبقيت بشارة الملائكة على حالها.. ها أنا أبشركم بفرح عظيم. فرح عظيم يحرر النفس من خوفها... ويفك أغلالها. فرح حقيقي أكثر معنى من سانتاكلوز أو من فرحة بهدية بلاستيكية أو ذهبية، بل فرح قلبي يغمر القلب الكئيب ويكسبه نضرةً وجمالا وبهاء. فرح عظيم ليس كما يعطيه العالم بل هو فرح حقيقي غير اصطناعي يفجر ينابيع القلب التي

جفت ويشفي النفس التي عطشت ويروي ظمأ الفؤاد بماء ينبع حياة أبدية.
بشارة الإله للإنسان هي في القديم كما في الحاضر. ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب. البشارة هي لجميع الشعب دون تفرقة أو عنصرية. فمن ظن أن البشارة هي لفتح وحدها دون حماس أو حماس دون العلمانيين. فما زال يعيش في غياهب جاهلية ما قبل الإسلام. حيث القبيلة والقبلية التي تقول:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

الفرح لا يمكن أن يكون مكتملاً إلا إذا عم جميع الشعب. اللاتيني كالسرياني والمسيحي كالمسلم في مواطنة كاملة. للفقير كما للغني في المساواة أمام القانون للذكر كما للأنثى لابن المخيم كما لبنت القرية للبدوي كما للحضري. الفرح لن يأتي إلا إذا تحققت وحدة وطنية ترعى شؤون الشعب ولا تفضل قبيلة على أخرى إلا في المسؤولية... لأن من أُعطي كثيرا يطلب منه كثيرا.

الفرح لن يكون عارماً إلا إذا عم الضفة والقطاع بانتهاء الاحتلال وإقامة دولة القانون والحريات. الفرح لن يكون شاملاً إلا إذا انتشر من النيل إلى الفرات ليشمل العراق وسوريا ولبنان وإسرائيل والأردن.

هل هذه أحلامٌ وردية؟
أم هي تخيلات رومانسية؟
لا وألف لا. بل هي بشارة ربانية..
لمن يملك أذنين للسمع من أبناء البشرية. ليس المهم ماذا يمكن أن يكون لو أن المسيح ولد اليوم. بل المهم أنه ولد هنا قبل ألفي عام ولد لأنه يحبنا. ويعشقنا. والمهم أنه من مذود بيت لحم المتواضع شع بنوره ليطرد خفافيش الفشل والإحباط والظلام وجعل منا رسل تنوير وحضارة وإخاء.
ليس المهم ماذا يمكن أن يكون لو أنه ولد اليوم بل المهم أنه تجسد ليبدأ الله مع البشرية صفحة جديدة ونقلة نوعية وخلاصا سرمدياً

أجل هنا ولد الخلاص
هنا شع الرجاء
هنا أشرق الضياء
هنا تجسدت الكلمة
فلم تعد بعيدة عنا بل صارت قريبة منا وحلت بيننا. ولم يعد الله غريبا عنا بل أصبح قلبه مفتوحا لنا ومن رحم الليل ولدت شمس الحرية وكل ما هنالك

أنه يريد أن يتجسد اليوم من جديد في عالمنا إنه بحاجة إلى أيادينا وأرجلنا، بحاجة إلى عقولنا وقلوبنا، بها وبنا ومعنا سيغير الله العالم عالم اليوم ليطل برحمته ورأفته وحنانه علينا ويشع بنوره على أرضنا...
فنرى مجده مجداً مملؤاً نعمة وحقاً.

آمين

الربيع العربي

خروج ٣: ١-١٠

مرة أخرى وبدون ترتيب مسبق تأتي القراءة الكتابية مرتبطة بالأحداث السياسية... ففي الأسبوع المنصرم تركزت الأنظار جميعها على مصر، وقراءة اليوم تنقلنا إلى هناك مع فارق ٣٢٠٠ سنة... ومع مرور هذا الوقت الطويل تبقى أشياء مشتركة كثيرة بين ما حدث آنذاك وما يحدث اليوم، ولكن هناك فوارق مهمة على حدٍ سواء.

من يستمع إلى الأخبار عبر التلفاز، أو يطالع الجرائد سيراها ميلئة بالتحليلات السياسية... فكل يدلو بدلوه، وكل يحاول أن يلقي الضوء على ما حدث... ولذلك لا أريد اليوم أن أثقل مسامعكم بتحليل آخر... فليس هذا هو بيت القصيد، بل أريد أن نتأمل معاً في قصة الخروج علنا نستطيع من خلالها أن نرى ما لا يرى... إن قصة الخروج ليست قصة حدثت في القديم، إنما هي نموذج لمسيرات الحرية... إنها نظرة لاهوتية وثقافية لما يحدث في الثورات الشعبية...
فتعالوا معي نتأمل فيها بقراءة عصرية:

١. في كلتا الحالتين هناك شعب يذل...
الكتاب المقدس يتحدث عن الذل... في لغة هذا العصر فهناك شعب تنتهك حقوقه... هناك أجيال تولد في المذلة... تعامل بدون كرامة وكأنها نفايات... شعب العبرانيين في القديم كان يسخّر في الأعمال الشاقة، في بناء الأهرامات العملاقة لفرعون... من يتأمل في هذه الحجارة الضخمة وكيف كانت تقتلع من المحاجر ومن ثمَ تنقل لترفع على الأهرامات في عصر لم يكن فيه أية روافع كهربائية لا بد وأن يدرك صعوبة هذا العمل... كم من العمال قضوا تحت الحجارة ومزقوا شر تمزيق دون تعويض أو حماية وكأنهم لا شيء... وفي مصر مبارك كم من الأشخاص يفتقدون إلى أبسط الحقوق... أذكر في مرة في إحدى المؤتمرات في قبرص، أنه ومن خلال جلسة التعارف، تحدث أحد الآباء الأقباط وعرف نفسه على أنه راعي كنيسة الزبالين... لم أفهم معنى هذا الاسم... اعتقدت أولاً أن

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠١١/٢/١٣.

سمعي قد خانني... فلم أفهم الكلمة... وقلت لا بدَّ أن يكون هذا اسم أحد القديسين في مصر الذي لم أسمع عنه قبلاً... فسألت هذا الأب مرة أخرى... ما اسم كنيستك؟ فقال لي: كنيسة الزبالين... تصوروا هناك مليون ونصف مصري يعيشون في المزابل... وفي وسط المزابل هناك كنائس... فالكثير من الزبالين هم من المسيحيين... هؤلاء يربون الخنازير في هذه المزابل ويعتاشون منها... وهناك ملايين تعيش في المقابر... بلا خدمات... شعب مسكين... لا حول له ولا قوة... كل همه أن يجمع القمامة من القصور والبيوت... الله في الكتاب المقدس يقف مع المظلومين... مع الشعب الذي تنتهك حقوقه لذلك يقول لموسى: «إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر... وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم... إني علمت أوجاعهم...» لا يوجد شك في أية جهة يقف الله ومع من يقف، فالله ليس بغير المبالي، بل يهمه الفقير والمظلوم وكل هؤلاء في دائرة اهتمامه.

٢. في كلتا الحالتين القديمة منها والجديدة يقيم الله أشخاصاً ينادون بالحرية... «أطلق شعبي ليعبدونني»... وفي كلتا الحالتين تقابل مطالب الشعب بالرفض... فرعون يرفض أن يطلق العبرانيين إلى الحرية... يتعنت... الكتاب المقدس يقول أن الله قسّى قلب فرعون... وفي لغة اليوم نقول: " تيّس"... لم يفهم كيف يقرأ الكتابة على الجدران... لم يستطع أن يشعر بنبض الشارع... في العهد القديم عشر مرات يحاول فرعون أن يتملص... أن يرفض... في الأسبوع الأخير كان هناك ثلاث خطابات لمبارك حاول أن يتملص فيها من الشعب..

ولكن هنا يأتي الفرق الأول:
في العهد القديم الحرية لا تأتي إلا بعد عشر ضربات... ثورة العبرانيين كانت ثورة دموية... عنيفة... الجميل في الأسبوع المنصرم أن ثورة الشباب بقيت سلمية... لم تزهق فيها الأرواح ولم تسفك فيها الدماء... هذا الفرق مهم... ربما مبارك تعلّم درساً، ولكن ربما الشعب أيضاً تعلم درساً... في العهد القديم فرعون يقتل ويطمر تحت الأمواج... في الأسبوع الماضي مبارك يعتزل... يغادر... في كلتا الحالتين الشعب يفرح يغني ويهلل... ويوثق لنا الكتاب المقدس ترنيمة مريم أخت موسى والتي تقول فيها: أرنم للرب فإنه قد تعظم... الفرس وراكبه طرحا في البحر... وكأن لسان حالهم يقول: الشعب أسقط النظام.

هنا أيضاً نرى فرق ثاني: في العهد القديم الله هو الفاعل...
هو الذي أطاح بفرعون... في العصر الحديث حل الشعب مكان الله...
الشعب هو الفاعل... هو الذي يسقط الأنظمة...

أحياناً بصناديق الاقتراع...
وأحياناً بالمظاهرات أو بالثورات...

٣. الشعب ليس بقديس... الكتاب المقدس لا يقدس الشعب فالله وحده هو القدوس... لذلك لا تنتهي قصة الخروج بخروج العبرانيين من أرض مصر إلا وقد تاهوا في البرية... القضاء على فرعون الطاغية كان فقط الجزء الأول وربما الأسهل... التحدي الأكبر للعبرانيين كان كيف يصلوا إلى أرض الميعاد... فالأرض الموعودة جميلة... أرض تفيض لبناً وعسلاً... أرض الميعاد كالديمقراطية... جميلة... الكل يحلم بها... والكل يتوق إليها... ولكن السبيل إلى هناك صعب... لذلك ما أن تخمد أصوات الترانيم إلا ويدخل الشعب في البرية... يتوه... لقد تخلص من فرعون... ولكن في البرية يجوع... من أين يأكل؟ فحتى موسى بعظمته لن يستطيع أن يطعمهم... فيثور الشعب في البرية... لماذا أخرجتنا يا موسى... أنموت في البرية... هناك على الأقل كنا نأكل... ونشرب... والشعب يبدأ بالتذمر على موسى وعلى الله... ويتوقوا إلى أيام فرعون...
هذا هو التحدي الذي ينتظر المصريين اليوم: هل سيستطيع النظام الجديد أن يؤمن للشعب لقمة عيش كريمة؟ من السهل الإطاحة بمبارك... ولكن هل ستستطيع القيادة الجديدة أن تغير النظام من أساسه... وأن تقيم نظاماً جديداً. في الكتاب المقدس جيل كامل يموت في البرية... لم يرَ أرض الميعاد... تخلص من فرعون... ولكنه لم يذق ثمار الحرية... حتى موسى منع من دخول أرض الميعاد... في هذه أيضاً حكمة... التغيير الحقيقي لا يحدث بين ليلة وضحاها... بل هو مسيرة طويلة لا تتحقق إلا على جسر من التعب ... فتغيير فرعون صعب ولكنه هين في النهاية... ولكن تغيير الشعب هو الأصعب... وتغيير الشعب بحاجة إلى جيل كامل... ولكن الشعب ليس له طول نفس... إنه بحاجة إلى التغيير وبحاجة إليه الآن...

٤. حتى يصل الشعب إلى أرض الميعاد فهو بحاجة إلى ثلاثة أشياء:

- هو بحاجة إلى تشريع جديد... دستور حياة جديد... لذلك أول شيء يعمله الله أنه ينزل التوراة ويعطي الشريعة لشعبه... إذن فتغيير الدستور المصري مطلب ملح ومهم جداً خاصة وأن دساتير مصر القديمة كانت أكثر حداثة من دساتيرها الجديدة... حدث تراجع في التشريع... وللأسف فإن فلسطين نقلت عن مصر جزءاً من تشريعاتها الجديدة.

- حتى يصل الشعب إلى أرض الميعاد فهو بحاجة إلى تغيير القيادة الفردية إلى قيادة جماعية... هذه كانت نصيحة ثيرون إلى موسى... لا تقد الشعب

كفرعون وحدك... بل عيّن سبعين شيخاً حكيماً كي يساعدوك... هذا هو التحدي الثاني للمصريين اليوم... الانتقال من حكم الحزب الواحد... إلى حكم تكون للأحزاب فيه مشاركة حقيقية...

- حتى يصل الشعب إلى أرض الميعاد فهو بحاجة إلى مساءله... لذلك وضع الله موسى تحت التوراة وليس فوقها... وعندما أخطأ موسى عاقبه الله بمنعه من دخول أرض الميعاد... بدون قانون يُسائل الصغير قبل الكبير. لماذا لا يوجد مستقبل في مصر... الكل يجب أن يكونوا تحت القانون... كانت هذه قراءة عصرية لقصة الخروج... صلاتي أن يبارك الله شعب مصر... وأن يقوده إلى أرض الحرية الحقيقة.

آمين

الرئاسة

يوحنا ٣: ١٦

أيها الأحباء في الرب،

أود أولا أن أستميحكم عذراً في هذا الصباح.
إذ وعلى غير العادة لن أخطب فيكم خطبة الميلاد.
بل سأخاطب طفل المغارة.
ففي جعبتي الكثير مما أريد أن أصرح به له.
في مخيلتي أسئلة تبحث عن جواب،
وفي قلبي شغف لفهم سر ذاك الإله الذي صار إنساناً،
وحل بيننا فرأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءًا نعمةً وحقاً.
ولكنني وأنا أخاطب سيدي،
أدعوكم إلى الاستماع، علكم تجدون شيئًا يفوق متعة
الكلام... علكم تجدون ضالتكم، ما زالت أبحث عن جواب،
أو خاطرة تأبى إلا أن تخترق جدران القلب والوجدان،
أو قبساً من نور يشع من النفق المظلم،
يخترق غشاء العقل والجدران...

يا سيدي...
في ذكرى ميلادك ارتأيت أن آتي إليك...
آتي إليك هربا من ضجة هذا العالم المضطرب...
والتي بدت في آخرها كأولها ...أخبار قتل وظلم ونفاق...
وطبول تقرع هنا و هناك، وشباب وأشبال في زي الكشاف يجوبون الشوارع
وصوت بائع متجول لا يترك للمرء مساحة
من خصوصية أو من حرية أو من اختيار...

يا سيدي...
في ذكرى تجسدك هذه السنة ستبدأ الحملة الانتخابية

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في عيد الميلاد بتاريخ ٢٠٠٤/١/٢٥.

سنسمع رسل المرشحين وكأنهم قد انضموا إلى جوقة الملائكة المرنمين...
فهذا سيبشرنا بخلاص من الأسر قريب...
وآخر سيعدنا بتغيير في وجهة السير، ما له من مثيل...
وثالث سيعدد علينا مناقب المخلص الموعود.
الذي ستكون الرياسة على كتفه... والذي سيكون حكمه
عجيباً مشيراً، والذي سيكون أبا للشعب ورئيساً يجلب معه السلام.

يا سيدي... لا أخفي عليك القول...
البعض منا سذّج ستنطلي عليهم الحيلة...سيصدقون أن
الرئيس القادم هو المخلص الموعود والمسيا المنتظر...
والبعض الآخر منهك . ومن يلومهم؟...إنهم يتمسكون بقشة علها
تحميهم من الغرق وتوصلهم إلى بر الأمان...
وآخرون تجّار يروجون لهذا المرشح ويدعون للتصويت
وذاك ليس إلا لأنهم مدفوعو الأجر، أو لأنهم موعودون بمنصب أو بنيشان...

يا سيدي غريب هو أمر هذا الإنسان...
فمرة تلو الأخرى يصدِّق وعود الساسة ويلدغ من نفس الجحر مرات ومرات...
بعد الفي عام لم يفهم الحكاية، لم يحفظ الدرس عن ظهر قلب...
بل بقي كريشة في مهب الريح...

يا سيدي نيسنا حكمة رعاة بيت ساحور غير المتعلمين...
كيف أنهم لم يصدقوا بشارة الملاك تلقائيا ولم يرقصوا
على وقع أنغامها طربين... بل ما أن انصرفت عنهم الملائكة
إلى السماء... إلا وقال الرجال الرعاة بعضهم لبعض...
لنذهب الآن إلى بيت لحم وللنظر هذا الأمر الواقع الذي أخبرنا به الرب...
الرعاة غير المتعلمين وقبل ألفي عام فهموا ما لم نفهمه نحن...
أن المهم ليس ما يقال بل الأمر الواقع الذي يرى...
وأن أهم حاسة في وقت الانتخابات ليست بحاسة السمع بل حاسة النظر...

يا سيدي...
أنا واثق أننا سنسمع وعوداً لا تضاهيها وعود...
سيعدوننا بالجنة نحن الذين اكتوينا بلهيب الجحيم...
وسنصدقهم، كيف لا وقد انضمت اسرائيل والولايات المتحدة

وأوربا إلى قائمة الملائكة المرنمين...
وسننسى جدار الفصل العنصري...وسننسى الانتكاسات التي
كان سببها الوعود الجوفاء...وسنغض الطرف عن الفساد
الذي عم البلاد وطغى...

وسنفيق من سكرتنا في العاشر من كانون الثاني...
لنكتشف أن أسيادكم في الجاهلية هم أسيادكم في الإسلام...

يا سيدي..
لقد سئمت الساذجين الذين يعيشون على النور الذي لا يبصرون..
وسئمت شرقنا المجتّر تاريخاً وأحلاماً كسولةً وخرافات طويلة..
شرقنا الباحث عن كل بطولة...عن صلاح الدين...أو عن أبي
زيد الهلالي...

يا سيدي...
اعترف الآن...وأظن أني تعلمت الدرس...
أقر...أنني قد شارفت على فهم معنى الميلاد...
فأنت المسيا المنتظر...أنت مشتهى الأمم...

أنت هو العنوان ...
فإنه – وقبل ألفي عام – قد ولد لنا ولد... وأعطينا ابنا...
ورأينا الرياسة على كتفه...ودعي اسمه عجيباً مشيراً
أبا أبديا رئيس السلام.
فلمَ الانتظار أيها الأحباء؟
ولمَ البكاء على الأطلال؟!؟
ولماذا إذن إضاعة الوقت؟!؟
لماذا نبقى نحدق في السماء بانتظار الخلاص...
إذ قد تم الخلاص...وغفرت خطايا الإنسان...

قالت السماء كلمتها الأخيرة... فما من حاجة بعد إلى الكلام...
جاء المخلص في محيّا الفادي... في مذود بيت لحم...
أجل يا رب... أظن أنني قد خرجت من سن المراهقة
حيث كنت أركض وراء العيون الزرقاء...

أخيراً أظن أنني فهمت معنى المحبة الحقيقية...
تلك المحبة التي أحببت بها عالمنا هذا...

يا سيدي...
في هذا الصباح أقف أمام مذودك لا أقوى على الكلام...
أتعجب كيف تطيق عالمنا المجنون هذا...
أستغرب لماذا أحببت أرضنا الجدباء هذه...
أحببتها رغم كذبها ونفاقها...
بل نزلت إليها وتجسدت بها وعشقتها...
لم تبعنا كلاما...بل وهبتنا حياة...
رفضت أن تتوج ملكا وآثرت إكليل الشوك غاراً
لم تعدنا بالسماء...بل قاسمتنا جحيمنا وبؤس عيشنا
كي تزهر أرضنا.

ولكن يا سيدي قل لي ماذا عن الانتخابات والمرشحين؟
أجابني وقد بدا واثقا:
ليس منهم المخلص... فأنا مخلصكم الوحيد...
كلهم ساسة... بحاجة إلى أصواتكم ليس إلا...
فلا تجروا وراءهم... بل إن أرادوا أصواتكم
فليبحثوا هم عنكم...
عليهم أن يقنعوكم... ولا تطلبوا منهم غير حقوقكم...
وهذه لا تساوموا عليها...
صوتكم يوم الانتخابات مهم، ولا تتركوا الميدان لحميدان..
بل به تعبرون عن آمالكم وآلامكم...
وبعد الانتخابات سيصبح هؤلاء ممثليكم سواء أشئتم أم أبيتم... وسيكونون وجها لوطنكم... وعنوانا لوجهتكم...
وتذكر يا بني...
ليس المهم ما تسمع... بل ما ترى من حولك...
تذكر حكمة الرعاة...
إن وعدوك بالمستحيل فاعرف أنهم من المنافقين.
فالمستحيل اتركه لي أنا الرب إلهك...
وأما الساسة فاطلب منهم أن يتفننوا بالممكن.

معسكر ينهار

١ كو ١٥: ١٩-٢٨

وأخيرا أسلم المصلوب الروح
أخيرا نكس ابن الله الرأس
وأُنزل جسد المسيح عن الصليب.
ونقل جثمانه إلى الضريح
ثم أغلق القبر بحجر كبير وثقيل.
أقفل القبر وانتهت قصة الحب العجيب.

الآن ستعود الحياة في فلسطين إلى مجراها المعتاد
فقد صلب ذاك الذي جال يصنع الخير ويجمع من حوله الجياع.
قتل ذاك الذي رفض الخضوع للرؤساء والحكام.
مات ذاك الذي امتنع عن قبول الرشوة. كما امتنع عن المتاجرة بالدين والإيمان.

الآن سيتابع دولاب الزمان دورانه كالمعتاد
فقد انتهت حياة ذلك الناصري المزعج الذي ظل يطرح الأسئلة الصعاب.
انتهت قصة ذلك الجليلي المتعب الذي ظل يحرض الشعب والفقراء.
انتهت أسطورة ذلك المقلق الذي حاول بث بشرى المحبة وراح يحطم شريعة الغاب...

الآن وبعد أن أقفل القبر بالأختام. فقد اقتلعت العاصفة الهوجاء وعاد السكون إلى القصور وإلى الهياكل والأسواق.
أغلق القبر وتسللت ظلمة لتغطي المسكونة برمتها...
وخيم سكون الموت على الخليقة كلها وكأنها قد ارتعبت لهول ما جرى...
وكيف لا ترتعب وقد رأت ظلمة القبر تلتهم بأنيابها نور الأنام؟
كيف لا ترتعد وقد رأت الموت يطبق بأسنانه على معطي الحياة؟
كيف لا ترتعش وقد رأت الأرض تضم بين ضلوعها رب السماء؟

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الانجيلية اللوثرية بتاريخ ١٩٩٠/٤/١٥.

وخيل للكون أن الظلمة قد أطبقت على النور،
وظنت البشرية أن اليأس قد طغى على الرجاء،
وتصور الشيطان أن الموت قد قضى على رب الحياة.

كانت تلك اللحظات التي قضاها يسوع في القبر لحظات مصيرية،
وكانت لحظات حاسمة في تاريخ المسيحية... فالمسيحية ليست
سوى المسيح، ولو استقر المسيح في ظلمة القبر، لأصبح
قبره مقبرة المسيحية بأسرها.

أجل كان قبر المسيح أخطر بقعة في الكرة الأرضية...
لأن الضيف الذي حل فيه لم يكن آمال أم فقدت وحيدها،
ولم يكن عزاء أمةٍ خسرت زعيمها
لكنه قبر احتوى بين ضلوعه مشتهى جميع الأمم،
وملتقى آمالها، واحتضن بين ذراعيه رجاء البشرية
ومعقل حماها واعتمادها.

حقا كانت الساعات التي قضاها يسوع في القبر قصيرة الأمد،
ولكنها كانت بالمقابل خطيرة الأثر، فلو طالت مدتها لاستطاعت
يد الظلم أن تتربع على عرش العدالة. فهناك على الجلجثة صلب
ثلاثة، فمنهم كان أقدس القديسين ومنهم من كان شر المجرمين،
وعلى الجلجثة علق نور الأنوار جنباً إلى جنب مع دامس الظلام،
هناك ارتفع رب الحياة والخلود ليرتفع بقربه أبناء الموت والفساد.
فلو بقي ثلاثتهم في القبر، لقلنا على العدل السلام.

ولكن قد قام المسيح مبرهناً للعالم أن الظلم وإن انتصر ساعة،
فإن العدل إلى قيامٍ الساعة...
قام المسيح مظهراً أنه وإن استوى الأبرار والأشرار عند الموت،
فسوف يتميزون في القيامة...
قام المسيح وأقام معه المسيحية الراقدة المستضعفة...
مبيناً أن أبواب الجحيم لن تقوى عليها.
ومن يطالع تاريخ الكنيسة يرى أن الكنيسة كثيراً ما دفنت
تحت التراب، وكثيرا ما اضطهدت من الطغاة، وكثيراً ما
ديست بالأقدام ولكنها خرجت من معاركها هذه منتصرة.

ألم تضطهد الإمبراطورية الرومانية أتباع المسيح؟
ألم تطاردهم في كل مكان؟ ألم ترمي بهم أمام الوحوش
لتتسلى بمنظرهم وهم يصارعونها فيصرعون؟

حقا حاولت هذه الإمبراطورية أن تقتل المسيحية في مهدها،
كما قتلت ربها إذ كان بعد في مقتبل عمره، وتوارى
المسيحيون في الكهوف كما توارى جسد
المسيح خلف الصخور، ولكن فجر المسيحيون
بوجودهم غياهب الظلام وسطع نورهم في أرجاء الأمبراطورية
كلها وانتصر على جحافل الوثنية والجاهلية والظلام.

انظروا إلى ما حدث في الدول الشيوعية من انقلابات،
أو لم يدّع فلاسفتهم أن الله قد مات، وأن الإنسان
قد استولى على عرش مولاه، أو لم تحاول تلك الحكومات
من أن تحد من حركة المسيحيين هناك. ورغم هذا وذاك
راح المسيحيون يجتمعون في الكنائس والساحات، راحوا
يحملون بأياديهم الشموع والأزهار، معلنين أن النور لأقوى
من الظلمة وأن الحياة لأقوى من الممات.
وانتصروا، ومن باحات الكنائس سطع نور الحرية،
ومن على المنابر دوت أحداث تنادي بالديموقراطية،
ومع رنين الأجراس انتشرت بشرى انتصار المسيحية.

قولوا هذا أيضا للدول الغربية...
التي سرقت من المسيحية لونها وأفقدتها طعمها وسبت منها قوتها،
قولوا لها أن المسيحية وإن غطت في سباتها فلا بد من أن
تقوم، لا بد من أن تنهض لا بد من أن تنتصر...
قولوا هذا للدولة العبرية التي راحت تمس الممتلكات المسيحية
قولوا لها أنها قد تحتجز البناية لساعات وأيام،
وأنها قد تحتل الأرض لسنين وأعوام ولكن لا بد للحق
من أن ينتصر، ولا بد لرايات العدل من أن تعود لترفرف...

الغريب في قصة القيامة أيها الأحباء- أن الحكومات والأعداء
قلما يستهترون بقوة المسيحية... لذا أرسل الرومان

ثلة من الجنود ليحرسوا القبر، ولم يهدأ
للكتبة بال إلا بعد أن ختموا القبر بالشمع.

أما التلاميذ فكانوا غير متوقعين القيامة قط
هكذا هم تلاميذ المسيح أمسِ وهكذا هم اليوم
يؤمنون بكل شيء إلا بمسيحيتهم.
يتبعون كل فلسفة إلا فلسفة دينهم.
يخدمون ويتبرعون لكل المؤسسات إلا لكنيستهم.

مسيحيو اليوم يعيشون وكأن مسيحهم ما زال في القبر...
تراهم بالخوف مكبلين... وعن بعضهم مشتتين،
تراهم على أنفسهم منطوين وعن عالمهم منزوين
مسيحيو اليوم يحيون وكأن مسيحهم ما زال ميتاً في الأرض...
ليس لهم من عمل سوى أن ينعوه ويحنطوه ويرثوا لحال أنفسهم
ولكنهم فقدوا ملوحتهم، فقدوا هويتهم وفقدوا رسالتهم.

ولكنه قد قام... فأعاد جمع التلاميذ كما تجمع الدجاجة فراخها...
قام المسيح وحطم الأقفال التي حبس التلاميذ أنفسهم خلفها...
قام المسيح فتلاشى الخوف في نفوس أتباعه...

قضى على خوفهم من مواجهة العالم... قضى على رهبتهم من حمل
الصليب... وأعاد لهم نبضهم..أعاد لهم ملوحتهم... أعاد لهم قوتهم
وأعطاهم هوية جديدة وبشارة فريدة وقوة غريبة.

لقد قام المسيح فلننهض نحن من سباتنا.
قام المسيح فلنطرح عنا أكفاننا.
قام المسيح فلنجدد مع إشراقة الربيع حياتنا.

حقاً لقد قام المسيح من بين الأموات، ووطئ الموت بالموت
ووهب الحياة للذين في القبور فالمسيح قام... حقاً قام.

آمين

أوسلو

لوقا ٢:٧-١٤

كان ذلك قبل ما يربو على الألفي عام... الوقت ليل والظلمة قد خيمت فوق مروج بيت ساحور... الناس نيام والسكون يخيم على الأزقة والطرقات، لا يُرى في الدجى سوى ألسنة لهيبٍ متصاعدة، التف حولها مجموعة من الرعاة راحوا يصطلون بنارها، وبينما هم يتسامرون ويتجادلون بأمور الساعة، كان بال الرعاة مشغولا بموضوع قديم جديد- موضوع فلسطين على مر العصور والأجيال - ألا وهو مفهوم السلام. لقد عاش الرعاة تحت نير الاحتلال الروماني ، ذاقوا منه الأمرين وخسروا أبناءهم بل وصودرت ممتلكاتهم وقطعانهم وفرضت عليهم أحكام صارمة. لا عجب أن يحلم الرعاة بالسلام في مثل هذه الحالة.

تطلع الرعاة للسلام كونهم ملوا الحرب والقلائل وحالة عدم الاستقرار، وتاقوا للسلام كي يتخلصوا من نير الذل والسيطرة الأجنبية. تعطشوا للسلام آملين بان تزدهر تجارة الماشية التي يشتريها جموع السواح ليقدموا قرابين في الهيكل. في هذا ساد الاتفاق بين الرعاة، لكنهم اختلفوا حول السبيل الأمثل للوصول إلى السلام: أحدهم وكان ينتمي إلى طائفة الغيورين قال: إن السلام لا يأتي الا بالكفاح المسلح ضد قطعان الرومان وجنودهم. ونادى آخر كان ينتمي إلى مجموعة الفريسيين: إن الاحتلال هو عقاب الهي نتيجة ابتعاد الشعب عن الشريعة وإن السلام لا يتحقق إلا بالرجوع إلى أحكام الله. وثالث أصر على أن الوضع صعب وأن ما من منقذ سوى ملكٌ قويٌ ومسيح منتظر وحاكم عادل. أما الرابع وكان من الصدوقيين فقد طالب بالواقعية ورأى أنه ما من بديل إلا القبول بخطة السلام الرومانية والتعاطي معها قدر الإمكان. وفجأة وبينما هم يتسامرون ويتحاورون فإذا بملاك الرب قد ظهر بهم...

بهذه الكلمات أرادت الملائكة أن توضح للرعاة وللعالم أجمع طبيعة السلام الحقيقي، واليوم في حوارنا عن السلام نتأمل في هذه الأنشودة ونستخلص منها العبر والدروس.
لذلك دعنا نمعن النظر في ثلاث من الجمل التي نقلها الملائكة للرعاة:-

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في عيد الميلاد بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٢٥.

١. ها انا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب

بهذه الكلمات أرادت الملائكة أن توضح بأن السلام الحقيقي إنما هو السلام الذي يشمل الجميع ويعني جميع أفراد الشعب دونما تمييز أو تفريق. فالسلام لا يمكن أن يقصد به فرص استثمار للأغنياء واستغلال الأيدي العاملة الرخيصة للفقراء مما يزيد الفجوة بين الغني والفقير. بل هو سلام للغني وللفقير يضمهم ضمن طبقة وسطى تخلو من الغنى الفاحش والفقر المدقع. فالسلام مرهون بالتطورات الاجتماعية. والتطورات الاجتماعية مرتبطة بالسلام. والسلام الحقيقي هو السلام الذي يضم بين ذراعيه المرأة والرجل ويضعهم على قدم المساواة في الأجر وفي الحقوق والواجبات.

فرحٌ عظيمٌ يكون لجميع الشعب... للمسيحي والمسلم على السواء لا يفرق بينهم في الحقوق السياسية أو المدنية أو الاجتماعية. فرح عظيم يكون لجميع الشعب أي للطفل كما للشيخ. فيوفر للطفل طفولة سعيدة. ويحفظ لهم مناخاً صحياً للتعليم والنضج والإبداع. وهو سلام للمسنين يوفر لهم حياة كريمة ومخصصات للشيخوخة ورعاية خاصة. فالسلام والعدالة الاجتماعية مقترنان لا يفترقان. السلام الحقيقي هو سلام لجميع الشعب بكافة فئاته وأحزابه. فلا يمكن أن يكون سلام الحزب الواحد. أو الشيعة الواحدة. بل سلام الشعب كله.

تابع الملاك قوله للرعاة...

٢. لقد ولد لكم اليوم مخلص هو المسيح الرب

لم يهبط رئيس السلام من السماء بمظلة. بل ولد ولادة. ولد بعد فترة حمل استمرت تسعة أشهر وفي هذه إشارة إلى أن السلام لا يقدم للإنسان على طبق من الفضة. ولا يدلى له بحبال ذهبية أو لا يسقط عليه فجأةً من السماء. بل يولد مارا بفترة مخاض صعبة وطويلة. يولد وقد تحف به المخاطر من كل حدب وصوب. لا يأتي السلام في ليلة وضحها بل هو يحتاج إلى وقت ويمر بمراحل صعبة وخطرة. ولكن ما أن يولد إلا وينسى الإنسان أحزان الحمل ومتاعبه.

السلام اليوم مهدد كما كان الطفل مهدداً من قبل جحافل هيرودوس. يتكلم السياسيون اليوم عن السلام قيمته مليارين سنويا. مع أن التسلح يكلف منطقيا ٤٦ مليار كل سنة. السلام مهدد من قبل التسلح. فما من سلام إلا

وقد وضع حدا للتسلح وفتح مجالات للتعاون والتنمية الحقة. يولد السلام كطفل صغير، فهو بحاجة إلى العناية والرعاية حتى يشتد عوده وتنتصب قامته وتخشن أظفاره... لا بد أن يصان السلام كما يصون الإنسان حدقة عينه، أو كما يرعى الطفل فيقدم له ويضحى في سبيله بالغالي والنفيس.

عندما نفكر بالسلام نفكر عادة بأشياء كبيرة وبفلسفات معقدة، نظن السلام عاصفة هوجاء تقتلع كل شيء في طريقها محدثة تغيراً هائلاً في العالم، نظنه كما هائلا. ولكن الكتاب المقدس يتكلم عن سلام يولد حقيراً ويلتف باقمطة ويرقد في مذود حقير. علينا أن لا نبحث عن السلام في الأشياء الكبيرة، بل في الأشياء الصغيرة، يبدأ السلام في البيت، بين المرأة والرجل وبين الوالدين والأبناء يبدأ السلام في الشارع، في أنظمة السير وأنظمة الطرقات.
يبدأ السلام بمظهر المدنية وجدران بيوتها.

السلام هو ميلاد فكر جديد في عالم قديم، إنه ميلاد وتربية جيل جديد يهتم بالبناء، إنه جيل لا يعيش على التغني بأمجاد الماضي والتراث، بل جيل يعتني بصغائر الأمور ويهتم بالأطفال كيف تشب وتنمو، وعلى أي القيم تتربى وما المبادئ التي تزرع في قلوبها.

أنشودة الملائكة التي دوت في قضاء بيت لحم كانت:

٣. المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة. . .

هذه الأنشودة تؤكد أن إعطاء المجد لله وإقامة السلام على الأرض وجهان لعملة واحدة، ومشكلة مجتمعنا هي أننا فصلنا الدين عن السياسة فصلا كاد يكون تاما، وأبعدنا الوطنية الحقة عند دربنا، فأضحت وطنجية ومتاجرة ومزايدة ولم تعد على الإطلاق ، مكارم أخلاق، وما كان أن تمسكنا بالدين أو العداوة والخصام والأحقاد، ونسينا أن الإيمان ما هو إلا تسامح وإخاء وانفتاح على الآخر.

السلام الحقيقي هو السلام الذي يصالح الدين والسياسة بحيث تصبح حقائق العدل تمجيدا لله، ويصبح الإيمان بالله محركا لصنع العدل والسلام. تتحدث أنشودة الملائكة عن سلام على الأرض وليس السلام في الخيال، وعاش شعبنا يحلم بسلام خيالي، سلام يأتي راكبا على فرس أبيض، يقضي على أعدائنا ويحررنا، منقذاً إيانا من كل ظلم، وهكذا جد أبناء شعبنا بالكتابة عن السلام،

هنا نعتني بالسلام وننشد من أجل السلام ونكتب عن السلام، وظننا أننا بذلك قد عملنا ما علينا، ونسينا أن السلام لا بد أن يصنع على أرض الواقع، لابد أن يكون السلام ملموساً، فهو بناء وترميم، وتجارة واستثمار، إبداع وتعليم، بنية تحتية وشبكة اتصالات ملموسة وليس خطابات. من ناحية أخرى يعيش شعبنا مصلوباً على خشبتين، فأذناه تسمع بشرى السلام عالية تصدح عبر كل تلفاز ومذياع، أما عيناه فلا ترى من السلام غير أشلاء أموات.

تقول الملائكة: إن السلام الحقيقي لا يمكن أن يكون حبراً على ورق، أو عظات على المنبر، أو اجتماعات في دورات مغلقة، بل هو سلام ملموس على أرض الواقع، يراه الإنسان بعينيه المجردة ويلمسه بقلبه ويتحسسه بيديه الاثنتين. السلام يصنع ولا يأتي بحركة سحرية، هذه هي بشارة الميلاد فبالمسيح صنع الله سلاماً مع العالم، ودعانا لنكون صانعي سلام فندعو أبناء الله. فالمسيح هو ابن الله لأنه صنع السلام ولم يتكلم عنه وليتنا بدورنا نقتدي برئيس السلام فنصنع السلام في بيوتنا ومدارسنا، في مدننا ومؤسساتنا فندعى حقا أبناء الله.

أعاد الله علينا هذا العيد وقد تحقق فعلا السلام الحقيقي والعدل والأمان،
وكل عام وأنتم بخير...

آمين

تسونامي

مزمور ٤٦: ١-٣

أيها الأحباء في الرب،

في هذا الأحد نقيم صلاة خاصة لضحايا الكارثة في اليابان. فما من إنسان راقب التلفاز في الأيام الأخيرة إلا وانفطر قلبه لرؤية حجم هذه الكارثة هناك... فأولاً ضرب زلزال بقوة ٨,٩ على مقياس ريختر شمال شرق اليابان، وبعده بنصف ساعة جاءت أمواج تسونامي وكأنها جيش جرار وحصدت معها الأخضر واليابس، وبعدها بأيام فإذا بالمفاعلات النووية في تلك المنطقة تنفجر وتتسرب إشعاعات أمواج الجاما... والحصيلة مخيفة: ما يزيد عن ١٨ ألف بين قتيل ومفقود... مئات بل آلاف المساكن دمرت بالكامل... والإشعاعات النووية أثرت على المأكولات ولوثت المياه والوضع هناك ما زال هشاً... فمئات الزلازل ما زالت تضرب المنطقة... وإمدادات الغذاء ما زالت مفقودة... الطرق ما زالت مقفلة... وخطر انفجار أحد المفاعل النووية ما زال موجوداً... في هذا الأحد نريد أن نفكر كيف يتعامل المؤمن مع الكوارث! وهناك ثلاثة أمور هامة في هذا الشأن:

١. **واجه الكوارث بالعلم...**

المؤمن لا بد وأن يراقب ويدقق ويبحث ويتعلم ليفهم ما يجري حوله... المؤمن الحقيقي لا يضع رأسه في الرمال كالنعامة... ولا يريد أن يرى أو يسمع أو يفهم... بل الإيمان الحقيقي ينفتح على العلم... الزلازل ظاهرة مفسرة علمياً... ليست هي غضب إلهي كما يحاول بعض الأصوليين تفسيرها... وكما فعل أحد الوزراء اليابانيين مؤخراً... ولا هي حركة غامضة يصعب تفسيرها... بل الزلازل هي تحركات في الصفائح التكتونية في باطن الأرض... وفي كل منطقة تتلاقى فيه صفحتان معاً تكون تلك المنطقة منطقة زلازل من الدرجة الأولى... اليابان تقع على حافة إحدى تلك الصفائح... لذلك فهي معرضة دائماً للزلازل... ولكن مرة كل مئة سنة إلى مئة وخمسين سنة تحدث زلزلة كبرى... الشيء نفسه ينطبق على منطقتنا أيضاً... المنطقة بين الصفيحتين هنا تمتد من البحر الأحمر جنوباً

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠١١/٣/٢٠.

وحتى تركيا شمالاً... بينما يمر صدع آخر عبر نابلس وحيفا إلى البحر...أي أن وادي عربة ووادي الأردن هو الحد الفاصل بين الصفيحتين... وهذا يعني أن الأردن موجودة على صفيحة وفلسطين على صفيحة أخرى... وبينما تنزلق صفيحة الأردن باتجاه الشمال تنزلق الصفيحة التي تقع عليها فلسطين إلى الجنوب... أي أن عمان مثلاً وقبل مئات آلاف السنين كانت تقع إلى الجنوب مكان البتراء... وبيت لحم كانت إلى الشمال مكان نابلس... نحن لا نشعر بهذا الحراك لأنه يحدث عبر مئات آلاف السنين... مع كل زلزلة كبرى تتحرك الجغرافيا بضعة سنتيمترات أو أمتار... ويعتقد بأن الزلزلة الحالية التي ضربت اليابان حركتها مسافة أربعة أمتار من مكانها...

نرجع إلى فلسطين إذ سيأتي يوم ستنسلخ فيه الأردن جغرافياً عن فلسطين وستتحرك كل منهما بإتجاه آخر... هذا سيحدث طبعاً بعد ملايين السنين وليس على زماننا... ولكن على زماننا يتوقع أن تحدث زلزلة كبرى مرة أخرى... إذ تحصل هذه الزلازل الكبرى مرة كل مئة إلى مئة وخمسين سنة، وحصلت آخر زلزلة بهذا الحجم عام ١٩٢٧ والتي خلفت آلاف القتلى ودمرت عشرات المنازل... العلم يساعدنا أن نفهم ما يجري من حولنا... وبالتالي نفهم القواعد العلمية التي تسير هذا الكون... فتماماً كما أن هناك قواعد للغة هناك قواعد للزلازل... ولذلك طور اليابانيون والأمريكان أنماطاً جديدة من هندسة البيوت التي تقاوم الزلازل... ففي اليابان كما في كاليفورنيا، كل بيت يصمم لا بد وأنه يبنى بطريقة مقاومة للزلازل... في الواقع لم تدمر بيوت في اليابان بسبب الزلازل... بل ما دمر كان بسبب أمواج التسونامي الهائلة... وللأسف في فلسطين وإسرائيل والأردن لا توجد بعد قوانين لإجبار السكان على بناء بيوت مقاومة للزلازل... وهذا شيء لا بد أن يحدث وهو في غاية الأهمية خاصة لمنطقتنا المعرضة للزلازل...

٢. **العلم مهم جداً لفهم وتفسير الظواهر ولكنه وحده لا يكفي...**

فبالإضافة إلى العلم فإن الإنسان بحاجة إلى الإيمان... فالكوارث الطبيعية لا تخاطب عقل الإنسان فحسب، بل وجوده كله يهتز باهتزاز الأرض... الهزة التي ضربت اليابان كانت أقوى بآلاف المرات من الهزة الأخيرة التي ضربت منطقتنا. من رأى أمواج تسونامي تخترق كل التحصينات تقتلع الأخضر واليابس وكأنها جيش جرار... وما من أحد رأى ذلك بأم عينيه - وبالأخص من عايشه - إلا وارتعدت فرائضه... كوارث مثل هذه تعيد إلى الأذهان كم هو مسكين هذا الإنسان... بعقله يفهم ما يجري من حوله... ولكن أمام الكارثة هو ضعيف... لذلك فإن الكوارث الكبرى تنطبع في ذاكرة الشعوب... ففي الذاكرة الفلسطينية كثيراً

ما نتحدث عن سنة الجراد ١٩١٥ ... أو سنة الثلجة الكبيرة... أو سنة الزلزال... إن إلقاء القنبلة الذرية على اليابان مثلاً يدفع بذاكرة هذا الشعب ليعيد التفكير فيها من جديد... وهذا ما سيحصل عادة جراء مثل هذه الكوارث... الكوارث تعيد الإنسان إلى البدايات... كل شيء يصبح بدائي... عندما يفقد الإنسان كل شيء... فإنه يهيم يبحث عن كسرة خبز أو نقطة ماء ولا يجد... فأمام الكارثة يظن الإنسان أنه هالك لا محاله... وأنه ما من منقذ له أو مساعد... لا أدري إن كنتم تذكرون حرب الخليج الأولى عندما ساد الخوف قلوب الناس من احتمال أن يضرب صدام صواريخ تحمل أسلحة كيماوية... وكان يمكن أن يموت الجميع بكبسة واحدة من عنده... والخطير هو كونك تدرك أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال موقف كهذا... هنا يأتي دور الإيمان... إن الله لم يترك العالم ولم يترك الإنسان... بل هو معنا في أحلك ظروف حياتنا... هذا ما اختبره إمام المغنين، وما رنمه أبناء تورح بعدما ضرب زلزال هائل مدينة القدس في القديم فراحوا ينشدون: " الله ملجأ لنا وقوة... عوناً في الضيقات وجد شديداً... لذلك لا نخشى ولو تزحزحت الأرض، ولو انقلبت الجبال إلى قلب البحار... الله في وسطها فلن تتزعزع..." لا شيء أيها الأحباء يستطيع أن يرجع إلى النفس هدوءها إلا الإيمان الحقيقي... إن الله لن يتركنا... وإنه معنا راعٍ... حامٍ.. ومخلص... هذا هو قلب الكتاب المقدس... هذه هي البشارة السارة... إن الجبال تزول والآكام تتزعزع أما إحسانه فلا يزول... وعهد سلامه لا يتزعزع... هنا وبالإيمان استطاع الإنسان أن يطور قوة أقوى من الزلازل... إذ استطاع أن يكتشف أن الله هو الوحيد الذي يمكن أن نعتمد عليه... لأن محبته أزلية لا تتزعزع... ويمكن أن نتكل عليه ١٠٠٪.

٣. فبالإضافة إلى العلم والإيمان فإن الإنسان بحاجة إلى العمل لمواجهة الكوارث...

والله أعطى الإنسان هذه المقدرة العجيبة... فما أن تمر الكارثة إلا ونرى الإنسان يقوم مرة أخرى.. ينهض... ينفض عنه الغبار... ويبدأ مرة أخرى عملية البناء... الفلسطينيون طوروا مثل هذا النمط... فبعد كل حرب... بعد كل انتفاضة نبدأ من جديد... لا نيأس... كذلك الأمر مع اليابانيين... لقد بدأوا بإعادة البناء... وفي أكثر الأحيان فإن منكوبي الكوارث بحاجة إلى مساعدة من الخارج... هذا ما حصل معنا... هذا ما حصل مع أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية... هذا ما يحصل مع اليابان اليوم... مع أن اليابان تعتبر من أغنى الدول في العالم... إلا أنهم بحاجة إلى مساعدة... لذلك فمن واجبنا أن نساعدهم... لذلك فتقدمة هذا الأحد ستخصص لإرسالها إلى الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في اليابان كي تستطيع بدورها أن تساعد المنكوبين... في الأيام الأخيرة بقيت على اتصال دائم مع أصدقائنا

هناك... أسأل عن حالهم... أصلي من أجلهم... وأتابع الرسائل التي يبعثون بها... واليوم سنجمع التبرعات من أجلهم... هذا أقل ما يمكن أن نفعله... إذا بالعلم والإيمان والعمل نستطيع أن نجابه الكوارث. "الله يبعدها عنا".

آمين

تفجيرات للكنائس

متى ١٤ : ٢٢-٣٢

في المسيحية هناك رموز كثيرة استخدمت للتعبير عن جوهر هذه الديانة... من هذه الرموز مثلاً السمكة... من يتجول في هذه المدينة ويتمعن في الملصقات التي على بعض السيارات سيلاحظ أن بعض السيارات مثلاً تضع المسبحة كإشارة لحركة داخل الكنيسة الكاثوليكية... وهناك سيارات أخرى تضع إشارة السمكة... والبعض لا يدرك ماذا تمثل السمكة... ولكنها رمز من القرون الأولى كانت تستخدمه الكنيسة عندما تجتمع سراً في المغر تحت الأرض حيث كانت ترسم هذا الشعار للدلالة على أن هذا الموقع هو موقع مسيحي... وذلك لأن كلمة سمكة باليونانية أو "أنسطوس" تمثل الأحرف الأولى للشهادة المسيحية: " يسوع المسيح ابن الله المخلص". وكان المسيحيون الأوائل كثيراً ما يستشهدون بسبب هذه الشهادة المسيحية. ومن الرموز الأخرى هو رمز السفينة... فإذا تأملت اليوم بشعار مجلس الكنائس العالمي مثلاً أو غيره من هذه المجالس تراها ترسم سفينة في شعارها أو ختمها... والسفينة هي رمز للكنيسة المسيحية... فالسفينة مكانها البحر وليس الشاطئ. وعلى الشاطئ ليس للسفينة أية أهمية سوى تنزيل الركاب والأحمال أو تحميلها... فمكان السفينة الحقيقي في البحر كما أن مكان الكنيسة هو في العالم... والناس بحاجة إلى الكنيسة في هذا العالم كما هم بحاجة إلى السفينة لإجتياز البحار والسفر و التنقل... ولكن التواجد في البحر ليس دائماً للراحة والاستجمام. بل قد يكون أحياناً محاطاً بالمخاطر... فالبحر تعصف به الأمواج و تضرب دفة السفينة وقد ينقلب رأساً على عقب. أو قد يغرق ويدفن في المياه الداكنة كما حصل مع العديد من الملاحين. ومن منا لا يعرف قصة سفينة التايتنك. وهذا ما حصل مع التلاميذ في بحيرة طبريه... فقد أمرهم يسوع أن يركبوا البحر بقاربهم... وكان الوقت ليلاً... وما أن وصل القارب إلى منتصف البحيرة إلا وهبت ريح قوية... وتقاذفت الأمواج السفينة... وكانت الرياح مضادة لحركة سيرهم... أحياناً كثيرة هذا ما يحصل مع الكنيسة... أحياناً تعيش الكنيسة في حالة من السلام في هذا العالم... فالشمس مشرقة... والأحوال طبيعية وميسرة... والأسماك تملأ

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠١١/١/٣٠.

الشباك... ولكن في أوقات أخرى... تكون الكنيسة محاصرة بأمواج عاتية تضرب دفتها... وأحياناً تواجه رياح عاتية مضادة... ربما تكون سياسية أو اقتصادية وأخرى نتيجة صراع قوي داخلي... فالكنيسة في مصر تعيش مثل هذه الحالة... فالتفجيرات التي تعرضت لها كاتدرائيتها هي مثال حي على تلك الأمواج التي قد تضرب دفتها... فالأوضاع السياسية المضطربة في مصر تشكل أيضاً حالة عدم استقرار لا يعرف المسيحيون مداه أو ماذا يخبئ لهم المستقبل... في مثل هذه الأحوال قد يتساءل البعض أين هو المسيح مما يحصل... هل ترك كنيسته تصارع الأمواج وحدها؟ هل حقيقة أنه لن يترك الكنيسة التي افتداها بدمه؟ وقد يرى يسوع البعض وثيقاً بحضوره... ويقول البعض الآخر أن هذا الإيمان هو محض خيال ليس إلا... ويسمع البعض الآخر صوت الراعي يقول: لا تخافوا أنا هو... فمن شاهد تسجيلات التفجيرات في كاتدرائية جميع القديسين - عندما سمع المصلون صوت الانفجار يهز كنيستهم، وبينما ساد الرعب صفوفهم... وراح البعض منهم يتدافعون إلى الأمام حرياً- كان صوت الراعي هناك يقول: ما تخافوش... ما تخافوش... ما تخافوش... ما تخافوش... فعبارة لا تخافوا تعني للبعض السكينة... وعزاء النفس والروح المعذبة الخائفة والمضطربة... تساعدها أن تكمل مسيرتها في هذه الحياة بدون تعقيدات... للبعض الآخر كبطرس مثلاً... فعبارة لا تخافوا تعني شيئاً أكثر... تعني "لا تخافوا" أن تركبوا الموج... لا تخافوا أن تخاطروا ... لا تخافوا أن تأخذوا دوراً ريادياً... أحد الأسئلة المهمة المطروحة اليوم على المسيحيين في مصر: ما هو موقفهم لما يجري؟!؟ هل يقبعوا في البيوت خوفاً على أرواحهم، ويستمروا في الصلاة والتعبد؟ أم هل ينزلوا إلى الشارع ويركبوا الموج كما فعل بطرس؟ ومن يدري إن كان اتجاه الرياح سيتغير أم لا؟ وهل هو أمان أن يركب المؤمن الموج؟ أم أن هذا قد يقوده إلى حتفه؟ وماذا لو ركب الإخوان المسلمون هذه الموجه لاحقاً وأداروها لصالحهم؟ أسئلة حقيقية تجول في عقول المسيحيين في مصر وهي تشبه إلى حد كبير الأسئلة التي مرت على بال بطرس وأخافته... ففقد توازنه... وسقط وكاد يغرق... حتى الكنيسة ما دامت في هذا العالم فهي غير مؤلهة... قد تفقد توازنها... قد تشك... قد تسقط... قد تأخذ قرارات خاطئة... ولكن يسوع لا يتركها... الحمد لله أننا لا نؤمن بالسفينة أو بالكنيسة... ولا نؤمن ببطرس: أي بالقيادات الكنسية... بل نحن نؤمن برب الكنيسة... الذي لا يتركها أبداً... لا يتركها في هذا العالم وحيدة... ولا يتركها في خوفها وشكها واضطرابها... بل يمد يده إليها... قد نشك أحياناً كثيرة بقدراتنا على التغيير... وقد نشك في إيمان إخواننا... وقد نفقد الأمل في الكنيسة ومؤسساتها... ولكن لا يمكن ابداً أن نفقد إيماننا بمخلصنا ... برب الكنيسة...

في نهاية القصة، بما أن السفينة وصلت إلى البر... ونزل التلاميذ منها... لم يملكوا وسعاً إلا أن يسجدوا للمسيح... لا لبطرس... ولا للسفينة... بل للمسيح معترفين:« بالحقيقة أنت ابن الله ».

في هذا الأسبوع سنجتمع معاً لنفكر في مسار هذه الكنيسة... هناك عمدة جديدة... هناك مجمع جديد... هناك مسيرة جديدة... هل سنصل إلى الوجهة المطلوبة... هل سنصل بهذه السفينة إلى بر الأمان... هل نستطيع أن نقود دفتها في بحر مضطرب الأمواج؟ هل نستطيع أن نمشي على الماء... أن نخاطر.. أن نركب الموج... أم سنخاف... سنرتعد... سنشك؟

ولكن يبقى شيء واحد أكيد:
لا وجود للكنيسة ولا للمؤمنين من دون ربهم...
فهو عماد هذه الجماعة...
وهو أساس وجودنا...
وله وحده المجد والسجود إلى أبد الآبدين.

آمين

جولياني و فيتوريو

متى ٢٨: ١-١٠

وأخيراً أسكت صوته... وسفك دمه... وصار عبرة لمن اعتبر...
جاء جولياني مير خميس إلى مخيم جنين... أراد أن يقاسم أطفال المخيم عيشهم... أرادهم أن يعبروا بالدراما عما يجيش في صدورهم... فأسس في قلب المخيم عام ٢٠٠٦ مسرح الحرية! ولكن في الشرق الأوسط ، الحرية تهمة مميتة... لذلك اغتالت خمس رصاصات جولياني في ٢٠١١/٤/٤

أجل أخيراً أسكت صوته... وسفك دمه... وصار عبرة لمن اعتبر...
جاء "فيتوريو أريغوني" إلى غزة عام ٢٠٠٩... قدم على متن أحد القوارب بهدف فك الحصار عن غزة... أراد أن يقاسم أهل غزة حصارهم... جاء متضامناً كجزء من حركة غزة الحرة... وراح ينادي ألا يغلق العالم عينيه عما يجري هناك... وإلا فقد البشر إنسانيتهم... ولكن الإنسانية مفقودة في غزة... لذلك شنق فيتوريو بعد عشرة أيام من جولياني.

أجل أخيراً أسكت صوته... وسفك دمه... وصار عبرة لمن اعتبر...
يسوع أيضاً ترك بيت أهله... جاء إلى عالمنا هذا كي يقاسمنا الشقاء... جاء متضامناً مع الخطاة... جاء يبشر المساكين... وينادي للمأسورين بالحرية... ولكن الحرية تهمة أمنية... لذلك اعتقل... وسجن... وحوكم... ومن ثم صلب في القدس خارج الأسوار بعد حوالي سنة ثلاثين ميلادية... هناك علق كالمجرمين...
انظروا إلى دماه كيف قطرت من جنبه
واسمعوا صوت أنين صاعد من قلبه
يا ترى لماذا فعلوا ذلك هل لكم علم به؟
يا ترى لماذا فعلوا ذلك ؟ وأي جريمة ارتكبها؟
وأي تهمة ألصقت به؟

التهمة كانت ذاتها لجولياني... لفيتوريو... وليسوع... كلهم كفروا...
جولياني كفر عندما جمع أطفالاً وشباباً من الجنسين... جمعهم معاً ليتعلموا

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في أحد القيامة بتاريخ ٢٠١١/٤/٢٤.

التمثيل... هو اعتدى على شرع الله... نادى بالحرام والاختلاط... لوث فكر الشباب إذ علمهم أن يعبروا عن مكنونات النفس!
وفيتوريو صليبي كافر... ومهما تضامن مع شعب غزة... فإن دمه مهدور وما من حماية له عند الحركات السلفية...

ويسوع؟
كافر أيضاً! جاء يتحدى الشريعة الموسوية... راح ينادي بالتحرر من الفرائض البشرية! عاش ينادي بديانة إنسانية: السبت وجد من أجل الإنسان... لا الإنسان من أجل السبت! فكأنه وضع يده في عقر خلية دبابير دينية... لسعته وأردته قتيلاً... يا ترى لماذا؟ ومن هي الجهة التي حكمت عليه؟ في الحالات الثلاث لجولياني... لفيتوريو... وليسوع... في الحالات الثلاث من أصدر حكم الإعدام كانت الجهات الدينية...

متى ٢٦ : ٦٥
« فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه، قائلاً:
قد كفر! ما حاجتنا بعد إلى شهود! ها قد سمعتم تجديفه. فبماذا تشيرون؟ فأجابوا: "إنه مستحق الموت!"»
في الحالات الثلاث، الحكم يصدر عن جهة دينية... تأخذ القانون بيدها... هي التي تقرر... هي التي تحاكم... هي التي تنفذ... وهي التي تعدم! والسلطات السياسية؟ في الحالات الثلاث تغسل يدها من عملية القتل: "أنا بريء من دم هذا البار..." هنا يطلقون اسمه على أحد الشوارع... وهناك على أحد القوارب... وهناك يضمون يافطة على صليبه: يسوع الناصري ملك اليهود! في الحالات الثلاث السلطات السياسية تهادن السلطات الدينية... إنها تخاف من مدها الأصولي... لذلك فهي تسمح لها بحرية الحركة... تغمض عينيها عن أيديولوجية التفكير الذي تنادي به... ولكن ومن جهة أخرى وأمام الرأي العام تغسل أيديها... توصي بفتح تحقيق في الجريمة...! أما حقيقة الأمر فهناك في العالم العربي تحالف غير معلن بين الدين والدولة لقمع الحريات... بكم الأفواه... ولتقييد كل الحركات والمبادرات... وكأن شرقنا لم يتغير كثيراً رغم مرور آلاف السنين! تصوروا أيها الأحباء لو انتهت قصة المصلوب كقصة جولياني وفيتوريو لكان عالمنا بائساً... يائساً... لا مستقبل له... ولكن وفي مثل هذا اليوم... قبل ألفي عام إذ بزلزلة عظيمة حدثت... ففكت الأختام... ودحرجت الحجارة... وقام المصلوب من بين الأموات... لا عجب إذ أن القيامة ركن رئيسي لإيماننا... لأنه لو لم يقم المسيح... لبقينا أسرى للشريعة... لو لم يقم المسيح... لكنا بعد أسرى

ظلمة القبر... وراء جدران محكمة الإغلاق... لا نقوى على التنفس... ينقصنا النور والهواء الرطب والنسيم العليل! ولكن في مثل هذا اليوم هبت علينا رياح جديدة... معها انقضى عهد العبودية... وانبلج فجر جديد أضاء بأنوار الحرية... لو لم يقم المسيح... لبقينا نجتر ثقافة الموت والكراهية ولأصبحنا كالطفيليات ننقض على كل ما هو نضر... يبشر بالخضرة... ويحمل براعم فتية... ولكن في مثل هذا اليوم قام رب البرية... قام محطماً القيد... مفجراً الصخر... معلناً أن اللاهوت يعلو على صوت الحرية.

لو بقي المسيح في القبر... لكانت الغلبة حقاً للبطش السياسي وللقمع الديني... ولأمسينا مستعبدين بعد أن جعلنا الله أحراراً...

لو بقي المسيح في القبر... لكان حالنا كالتلاميذ خائفين... مهزومين... وبلا رجاء... ولكن بقيامته... فقد جعل منا رسل بعث وتجديد وإبداع... وأعطانا بشارة خلاص من الخوف... وبشرى ثقافة تؤسس على الحرية... صراع الإصلاح مع روما تمحور حول الحرية... حرية الضمير... حرية المؤمن... الصراع اليوم في العالم العربي هو على الحرية... حرية التعبير... حرية الإعلام... ودولة الحريات المدنية... فالصراع اليوم في فلسطين يقوم على الحرية... الحرية من الاحتلال... حرية المعتقد... والتعددية السياسية والدينية.

فبالقيامة جعل المسيح من الحرية أسمى القيم الإنسانية... والعبرة من وراء القيامة هي أن يتوق الإنسان إلى الحرية وإنها لأقوى من القيد وأقوى من القبر بل وأقوى من الموت. لقد حرركم المسيح فكونوا بالحقيقة أحراراً.

حرب الخليج الأولى

لوقا ٢ : ٨-١٤

كيف عدت إلينا يا عيد؟

ومالي أرى ملامحك وقد تغيرت؟؟؟
مالي أرى أحوالك وقد تبدلت؟؟؟
مالي أرى نظراتك وقد تغيرت؟

في مثل هذا اليوم تعود بي الذكرى إلى أيام الطفولة التي مضت...
إلى أيام كنت أيها العيد تأتي إلينا مثقلاً ببشائر الفرح والخير
كنت تأتي إلينا بشجرة خضراء نتسابق إلى تزيينها...
كنت تأتي إلينا بهدايا نفرح باستلامها...
كنت تأتي إلينا بموكب البطرك فنتزاحم للاصطفاف لرؤيته.

في مثل هذا العيد أتذكر سنينا دراسية خلت.
كنا نقضي أسابيع أربعة نستعد فيها لإلقاء قصة الميلاد...
كم كنا نفرح مع الرعاة؟؟؟
كم كنا نطرب على سماع أنشودة الملائكة؟؟؟؟
كم كنا نبتهج لرؤية طفل المغارة مقمطا مضجعا في المذود؟؟؟

كيف عدت الينا يا عيد؟؟؟
في كل عام كنا نقرأ قصة رعاة في حقول بيت ساحور
متبدين وعلى رعيتهم ساهرين...

أما هذا العام فلا نطالع إلا قصص جنود في صحاري
الخليج متمركزين وبمدافعهم وصواريخهم مدججين...
في كل سنة كنا نسمع صوت ملاك الرب مطمئنا إيانا
وقائلا: لا تخافوا... فها أنا أبشركم بفرح عظيم...

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في عيد الميلاد بتاريخ ١٩٩٠/١٢/٢٥.

أما هذه السنة فلا نسمع سوى صدى أصوات السياسيين
تثير أعصابنا تبشرنا تارة بحل سياسي وسط
وتارة أخرى بهجوم كيماوي وشيك...

حتى أنشودة جند الملائكة...
التي لطالما طربنا على إيقاعها:
المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة...
حتى هذه الأنشودة حرفتها السياسة وتبدلت كلماتها فأصبحت:
المجد للجبروت والقوة وللغرب السلام وللعرب التعاسة.

كيف عدت إلينا يا عيد؟؟؟
لقد غبت عنا مدة ثلاث سنين، وهذه السنة لم تصل إلينا بعد؟
هل أخافتك أزمة الخليج؟
أم أنك ستحتفل مع الجنود الغربيين هناك؟؟؟
وكيف ستحتفل مع جنود
أفكارهم راحلة إلى عائلاتهم؟؟؟
كيف ستحتفل هناك مع جنود يتمنطقون بأمتعة للغاز بدل الهدايا؟
ينصبون المدافع بدل أشجار الميلاد؟؟؟

احتفالك هناك يثير ثائرة الأصوليين الذين يقولون أن
الأمريكيين ينجسون مياه الخليج...احتفالك هناك يثيرنا نحن
المسيحيين الفلسطينيين - فيحملنا على القول : بأن هؤلاء الجنود لا يدنسون
السعودية بقدر ما يدنسون اسم المسيح ملك السلام وفادي العالمين.

تعال وعد الينا يا عيد...
تعال الينا يا طفل المغارة فنحن في أمس الحاجة اليك...
أنت ترى الخوف يحيط بنا، والقلق يعصف بأفكارنا...
فأسمعنا صوت الملاك المشجع المطمئن القائل: لا تخافوا

أنت ترى الظلمة تحدق بنا... ترى اليأس يكبل تطلعاتنا...
فأضئ علينا يا من أضاء مجدك حول الرعاة...
أضئ في نفوسنا شمعة رجاء وقنديل أمل
ليبدد الظلام الحالك من حولنا.

تعال الينا يا من صرت بميلادك طفلا ورمزا للبراءة...
تعال وازرع في عالمنا المتناحر غرسا من براءتك.

لقد صرت وأنت الإله العظيم طفلاً صغيراً،
فعلمنا أن نرجع ونصير كالأطفال لنحظى بملكوتك.

تعال الينا أيها الإله المتجسد...
فلقد صرت وأنت الإله الجبار بشراً سوياً
نزلت من عليائك إلى حضيض عالمنا.
ولما لم تجد لك موضعا مع البشر ولدت في مذود بين البقر...

انتشلنا من وحل الحيوانية العالق بحياتنا
وارفعنا اليك لنصير بدورنا بشراً
بكل ما في الكلمة من معنى وجمال وقوة.

أرسل ملائكتك إلى هذه البقعة من عالمنا.
واجعل أصواتهم ترتفع فوق ضجيج أرتال الجنود
المتمركزة في خليجنا...واجعل أناشيد السماء
تعلو على صوت طبول الحرب التي تدق في عالمنا.

أشركنا إلهي اليوم بجوق الملائكة...
وعلمنا أن نعطي المجد لك وحدك لا لجيوشنا وجبروتنا
وعلمنا أن نكون صناع سلام وعدل على أرضنا
وأرنا الطريق التي تقود إلى إدخال الفرحة في قلوب الناس من حولنا...

يا طفل المغارة وسع المغارة
وطني بردان رجّعله الطهارة
ليرجع منارة في عتم الزمان
من دفا عينيك امسحو بالإيمان
وبشر أهالينا بميلاد الأمان
يا يسوع يا يسوع

آمين

حصار بيت لحم

مزمور ٢٧

أربعون يوماً مرت منذ التقينا للمرة الأخيرة
أربعون يوماً هي الفترة ما بين القيامة والصعود
وهي مدة قضاها التلاميذ الأوائل خلف الأبواب المغلقة
والنوافذ الموصدة بسبب الخوف...
وهي مدة قضيناها نحن تحت الحصار...
كانت فيها جيوش الاحتلال جاثمة على صدورنا...
تدمر شوارعنا... تحيط بكنائسنا وترعب أطفالنا...
أربعون يوما هي الربيع الذي سُرق منا...
اجتيحت مدننا أواخر الشتاء وقد كنا بمعاطفنا وكنزاتنا...
وخرجنا منها بالأمس بملابس الصيف القصيرة والخفيفة...
وكأننا قد انتقلنا بلمح البصر من شتاء إلى الصيف...
أجل إنه الربيع الذي سرق منا...

لقد أضعنا رؤية الحنون الأحمر يكسو حقولنا...
وافتقدنا خضرة المروج وعنفوان الحياة تدب
في بساتيننا بجبالها ووديانها...
لقد سرقت منا المشاوير والرحلات
وقضي لنا ألا نتمتع بخيوط الشمس الربيعية
فبقينا أسرى بيوتنا بتلفازها ومذياعها تزيدنا عذابا على عذاب.

أتينا هذا الصباح لنبدأ هذه الخدمة المقدسة بتلاوة
مزمور نحبه ونقدره ونجله...
الرب نوري وخلاصي ممن أخاف. الرب حصن حياتي ممن أرتعب...
مزمور نحبه ولكننا إن قرأناه اليوم نراه فجأة غريبا عنا... بعيداً عن تجربتنا
وكأنه لا ينطبق علينا أو على بشر مثلنا...

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠٠٢/٥/١٢.

أوَ لم تسمعوا صاحب المزمور يقول:
« عندما اقترب إلي الأشرار ليأكلوا لحمي مضايقي وأعدائي عثروا وسقطوا.." أما نحن فلا بد من أن نعترف...بأن دبابات الاحتلال قد احتلت مدن الضفة الغربية في ساعات قلائل، أسرع جداً مما احتلها في حرب الأيام الستة...
ولم يعترض أي شيء طريق مدرعاتها وآلياتها...

وسيسجل في التاريخ أنه (إذا استثنينا مخيم جنين) أن قوات الاحتلال لم تفقد سوى جنديين اثنين في حربها هذه مما سيفتح شهية الاحتلال على أن يعيد الكرة من جديد، فهي حرب غير مكلفة بشرياً، وما يعنيهم هو الخسائر البشرية.

أجل ما أبعد ألفاظ صاحب المزمور عن واقعنا:
أوَ لم تسمعوه يقول:
«إن نزل علي جيش لا يخاف قلبي...
إن قامت علي حرب ففي ذلك أنا مطمئن...».
نسمع إلى هذه الكلمات فتنتابنا الدهشة:
أحدهم يقول: إن معنوياته لعالية...وإنه لرجل مقدام...
ونقول لقد ولت أيام عنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي...
وفي زمن الحرب الإلكترونية لا تحسب العواطف...
هذه الحرب الإلكترونية عشناها صغاراً وكباراً، فالطائرات بدون طيار التي تئز ويدوى صوتها في فضاء مدننا لدليل على هذه الحرب الإلكترونية... والرشاش الآلي الذي ثُبّت فوق الرافعة والذي أطلق النار على أحد الشبان أمام باب كنيسة كاترينا الراعوية كانت تسيره كاميرا إلكترونية...

"إن نزل علي جيش لا يخاف قلبي...
إن قامت علي حرب ففي ذلك أنا مطمئن...".
نسمع هذه الكلمات ونتساءل:
أليست هذه كلمات إنسان يستخف بالحرب وأوجاعها...
كانت هذه الكلمات تذكرنا بخطب وشعارات بعض القيادات السياسية والأجهزة الأمنية التي كانت تقول:
إننا مستعدون لأي اجتياح وأننا سنجعل مدننا مقبرة لهم؟
أوَ ليست هذه كلمات شاب طائش لم يختبر شيئاً من الحياة
أو رجل في سن اليأس يكابر ويفاخر ويفاشر ليبرهن على رجولته
أمام حفل من النساء؟

لا يا صاحب المزمور...نحن نخاف الحرب...
كما نرهب شعاراتها...
لأن الحرب بشعة... وقحة... وخطيرة، خطيرة جداً...
لا نفرح بسماع بعض الشبان على الفضائيات ينادون بها...
وكأنها قطعة من الحلوى العربية...

لا يا صاحب المزمور... نحن نخاف الحرب...
لأن الذي لا يخاف لا يخيف...
الحرب مدمرة لا تفرق بين أخضر ويابس...بين صالح وطالح...

لا يا صاحب المزمور ...نحن نخاف الحرب...
لا عن رغبة في الإستسلام بل عن حكمة وبعد نظر وروية...
إننا نرى في الحرب عنجهية...
ونقولها لشعوب منطقتنا الإسرائيلية، والفلسطينية والعربية...
لقد أثبتنا ذلك لبعضنا البعض:

لذا يستطيع شبابنا أن يحولوا مقاهيهم إلى مقابر...
ويستطيع شبابهم أن يحولوا شوارعنا إلى مزابل...
فالحرب مكلفة وقد عرف صاحب المزمور هذه الحقيقة:
لذلك نسمعه يقول: إن أبي وأمي قد تركاني...
من رأى بأم عينيه الرجل سامي عابدة، جار هذه الكنيسة،
يجتاز شوارع هذه المدينة، يمسك بكل عربي وأجنبي،
بكل مراسل وصحفي يهزهم ويقول:
إن أخي وأمي قد تركاني...قتلا في بيتنا، وظلّا هناك خمساً وثلاثين ساعة ينزفان دماً...!

من رأى سامي وسمع أناته يدرك كم هي بشاعة الحرب... وويلاتها.
من نظر إلى أطفالنا وأدرك كم حرموا من العلم ونوره، يعرف كم هي مكلفة الحرب، لأنها تقرن بالتخلف والجهل والظلام...
من شاهد عائلات تفتقر إلى لقمة الخبز وإلى مصدر الرزق
وإلى كرامة العيش تقف طوابير أمام شاحنات المؤن
يفهم كم مهينة هي الحرب لكرامة الإنسان،
اللهم إلا إلى تجار الحرب القلائل...

أجل، يا صاحب المزمور...نحن نخاف الحرب
اللهم إلا في حالة واحدة نحن لا نخافها...
الحرب لا ترهبنا إذا اكتوينا بنارها فتعلمنا كطفل أن نحظر نارها...
الحرب نار مستعرة، والأبلى من ذلك أن يصب العرب وأمريكا
بزيوتهم فوق هذه النيران لأسباب هم يعلمونها،
ولكننا نحن الذين نكتوي بنارها...
فهل تعلمنا؟
إن فهمنا أن الحرب ليست بعرس، كلما صفق لنا العرب
على شاشات التلفاز قمنا لنرقص على وقعها، أو كلما دفع
اللوبي الصهيوني ثمنها قام الإسرئيليون باختيار العروسين
وتزيينهما لحفلها.

أجل، يا صاحب المزمور...الحرب لا تخيفنا...
لأنها لا ولن تستطيع أن تفرقنا عن الله...
« إن أبي وأمي قد تركاني...والرب يضمني...»
حتى زمن الحرب نقول: والرب يضمني...
ألم نلمس حضور الرب المقام بيننا حتى وسط القصف،
ومنع التجوال؟ ألم نشعر بيده الرحيمة تضمنا؟
بالأمس قابلت العديد من أبناء هذه الكنيسة وكلهم قالوا لي:
"لقد اشتقنا للكنيسة! "تقنا للترنيم"!
ننتظر على أحر من الجمر كي نجتمع معا، نصلي معا، نهلل معا!
أجل، الحرب لم تستطع أن تبعدنا عن مخلصنا،
لذلك نهتف: الرب نوري وخلاصي ممن أخاف...

الحرب لا تخيفني...لأنها لا تستطيع أن تبعد الله عني...
بل بالعكس الحرب زادتنا اشتياقا إلى الله، زادتنا تمسكنا
بالفادي، زادتنا قناعة بعظم إيماننا!
الحرب لا تخيفنا، بل على العكس...
لقد قربتنا من بعضنا البعض...
فاجتمعنا من بقاع الأرض كلها...
تذكرني هذه الحرب بقصة مؤثرة سمعتها من سيدة مسيحية
في لبنان تدعى ديانا حداد...
التقيت بها في أوائل الثمانينيات في ألمانيا...

قالت لي ديانا:
كان ذلك صباح الأحد... صباح عيد القيامة... والحرب اللبنانية
كانت في أوجها... اجتمعنا للصلاة... اجتمعنا لنعيّد...
وراحت القنابل تتساقط حول الكنيسة... وراح الرصاص يئز
ويصوت في فضائها... وشعرنا بالموت يقترب منا...
وكانت الجوقة ترنم: المسيح قام من بين الأموات وداس الموت بالموت
ووهب الحياة للذين في القبور...
وظل الرصاص يطلق والقنابل تسقط وأصوات الإنفجارات تتعالى
ورحنا نرتل: المسيح قام من بين الأموات وداس الموت بالموت
ووهب الحياة للذين في القبور...
أجل الحرب لا تخيفنا لأن ليس لها غلبة على فادينا وبالتالي علينا.

أجل يا صاحب المزمور...
الحرب لا تخيفنا لأنها لن تستطيع أن تسلب منّا
حلم الحرية...حلم الاستقلال...حلم الخلاص...
الحرب لن تستطيع أن تسرق منا رؤيتنا المستقبلية ...
فالحرب دمرت شوارعنا وسنعيد إعمارها...
سنستبدل بيت لحم ٢٠٠٠ ببيت لحم المستقبل
الحرب اقتلعت أشجارنا فسنزرع أشتالاً...
الحرب لن تستطيع أن تشوش على مخططاتنا...

قد تؤخرها بضعة أشهر ولكنها لن تحطمها...
الحرب لن تسلبنا تطلعاتنا للعيش بسلام مع جيراننا.
الحرب لا تحقق أهدافها لذلك هي لا تخيفنا...
سنبقى نزرع ونحصد... نبني ونعمر نعلّم ونثقف...
نرسم أقواس قزح في الفضاء...

أجل، يا صاحب المزمور، الحرب لن تخيفنا...
بل لقد علمتنا ألا نترك شوارعنا مرعى لطخيخة الأعراس
أو: مرتعا للأوباش.
بل علينا أن نمسك نحن بزمامها...
لن نترك مستقبلنا في أيدي غير المثقفين...
بل سنشمّر عن سواعدنا ونتحمل مسؤولية...مستقبل قرانا ومدننا...

أجل الحرب علمتنا أنه لن تقوم لأمة قيامة إلا بالاستقامة
ولن يكون مستقبل دون عدالة، وحكم قانون،
الحرب زادتنا إصراراً على ألّا نترك الساحة لغيرنا
بل لا بد من أن ننخرط كلنا في بناء وطن جديد.
لا يمكن أن نقبل بأن تكون السياسة تياسة...
ولن نرضى بأن تجلب لنا الفوضى تعاسة...
بل السياسة هي عدالة، تخطيط، وتنظيم،
إنها مسؤولية ونحن مدعوون إلى أن ننخرط بها كلنا.
فالسلام عملية تراكمية...بناء حجر على حجر...
النهضة عملية تراكمية...لن نسمح لأحد بالتشويش عليها...
التقدم عملية تراكمية...لا يمكن أن تتقدم أمة
خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الخلف...
الحرب لن تخيفنا، لأننا انكوينا بنارها،
وتعلمنا منها، وتمسكنا بحلمنا، وحملنا
مسؤولياتنا، وتعمّق إيماننا.
أين شوكتك يا حرب؟
أين براثنك؟
أين غلبتك؟

شكرا لله الذي يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح

حملة الرصاص المصبوب

أشعياء ٥٤: ٧-١٠

لفت نظري في أحد الأيام ابن وابنه...
الابن يبلغ حوالي السنة من عمره... يتعلم المشي...إنه في خطواته الأولى...
كان الأب يمسك بيد ابنه الصغير ليعلمه المشي...
وبين حين وآخر يترك الأب يد ابنه ... فيرتبك الابن ويخاف... ويصرخ...
ومن شدة هلعه يسقط على الأرض...
ومن ثم كنت أسمع صوت الأب يقول لابنه : لا تخف أنا هنا... أنا معك...

هذا هو التشبيه الذي يستعمله أشعياء في قراءة اليوم: للحيظة تركتك...
بالنسبة لنا نحن نضحك على الطفل...
نعرف ما يريده الأب... ونعرف في قراءة نفوسنا أننا نتحدث هنا عن شئ تافه...
فما قيمة ترك الأب لابنه للحيظة إذا ما قيست بحياة الطفل الذي سيبلغ ويعمّر وسيمر بلحظات عصيبة جداً...
ترك الطفل للحيظة يبدو تافهاً ولكن بالنسبة للطفل في تلك اللحظة هذا شيء مصيري... لا يستهان به...
وكأنه نهاية العالم...
وعلى فكرة إذا تكرر قد يؤثر سلباً على نفسية الطفل وثقته بنفسه وبمن حوله...

بالنسبة لشعب العهد القديم هذه اللحيظة كانت السبي البابلي...
عندما دمرت جيوش البابليون مدينة القدس دمرتها ولم تبق فيها حجراً على حجر... بل وجمعت أفراد الطبقة المتعلمة والأستقراطية ونقلتهم إلى بابل...
ولم تبق في القدس الا العراة والفقراء والبائسين والذين لا حول لهم ولا قوة...
هذه التجربة كانت تجربة قاسية جداً بالنسبة لشعب العهد القديم... أحسّوا أن الله تركهم ... وكأنه تقهقر وخاف واندحر أمام جحافل البابليين...
أحسّوا أن الله هرب وتركهم وحيدين بلا حليف أو معين...
لحظة صعبة جداً ظلت عالقة في صفحات الكتاب المقدس...

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٨.

لابد أن سكان غزة في هذه الأيام يعيشون حالة شبيهة جداً... فالقصف المدفعي وطائرات الأباتشي والأف ١٦ تقصف أطراف القطاع بلا هوادة...
شعب بأكمله(١,٥ مليون) بلا كهرباء منذ مدة وبلا بنزين منذ أشهر...
وبلا مواد أساسية للحياة...

٦٦ قتيل خلال ٣ أيام... الأغلبية من بسطاء الشعب...
من المساكين الذين كانوا في المكان الخطأ في الوقت الخطأ...
لابد أن السكان هناك يشعرون أن العالم قد تركهم...
العالم العربي تركهم... هذا إن كان في الحقيقة معهم يوماً ما...
والعالم الغربي لا يأبه بهم ولا بحقوقهم الأساسية...
والأمم المتحدة تشجب على مأساتهم وكلما ساءت أوضاعهم ازدادت التبرعات التي يجمعونها باسمهم...
والعالم الإسلامي يتفرج عليهم ويستعملهم مادة للقطاته المتلفزة التي لا تؤثر إلا في العواطف ولكنها لا تسد رمقاً ولا تغير حالاً...
بل وحتى سكان الضفة الغربية قد ملوا الحديث عن غزة رغم الإضراب الذي يريد أن يظهر العكس للخارج على الأقل...
سكان غزة في هذه الأيام يفهمون معنى كلمات الله للمسبيين:
للحيظة تركتك...

المهم في هذه الكلمات هو القائل :
الله يقول لشعب العهد القديم أنه تركهم للحيظة...
هذه أصعب اختبارات الأنسان...

بالنسبة لأهل غزة أن يُتركوا من قبل الشعوب العربية والإسلامية والغربية فريسةً سهلة لإسرائيل هو شئ مؤلم ولكن في النهاية استطاع هذا الشعب أن يتأقلم مع هذا الواقع...
وأن يترك أبناء الضفة أخوانهم في غزة أمر صعب ولكن هذا الآخر أيضاً مقدور عليه... ولكن أصعب شئ عندما يحس شعب أو إنسان أن الله قد تركه...

هذا أصعب ما في الحياة...
المسبيون في بابل شعروا أن الله نفسه قد تركهم وحيدين...
إنه شعور صعب جداً...
إذا شعر أهل غزة بأن الله قد تركهم... فهذا شئ مرعب... أن تتركهم فتح أمر

صعب... أن تلعب بهم حماس أمر صعب... ولكن اذا شعروا أن الله قد تركهم فهذا اختبار قاسٍ جداً...

لا أعلم إن كان أحد منا على الصعيد الشخصي قد اختبر يوماً مثل هذا الاختبار... كلنا اختبرنا كيف تركنا بعض الأصدقاء ... الذين كنا نظنهم أصدقاء العمر... ولكنهم تركونا وراحوا لحالهم...
ولكنا اختبرنا كيف تخلى عنا الأقارب... في الأوقات التي كنا بحاجة إلى وقوفهم معنا... تركوا وزعلوا...
بل وقد يكون بعضنا قد اختبر أنه ترك من قبل أبنائه
ومن هم من لحمه ودمه... سواء أهاجروا... أو استقلوا ... أو انفصلوا... أو... أو...

هذه تجارب صعبة ... ولكن لا أعلم إن كان أحد منا قد ظن يوماً أن الله قد تركه... هذا اختيار صعب جداً...
ربما لم نشعر يوماً بمثل هذا الشعور...
ولكن يسوع شعر بمثل هذا الشعور...يسوع اختبر هذه الوحدة القاتلة...
هذه اللحظات الأليمة التي نعجز عن التعبير عنها...
فهناك على الصليب عاش يسوع أحلك اللحظات...
فقد خانته الجموع الكثيرة التي راح يشفيها ويعظ بها ويعلمها... وصرخت الجموع أصلبه أصلبه بعد أن كانت قد هللت له يوم دخوله القدس...
بل وحتى تلاميذه... تركوه على الصليب وحيداً...
بطرس خاف على نفسه فأنكره...
والآخرون تواروا عن الأنظار وهربوا بجلدهم...
وبقي على الصليب وحيداً اللهم إلا من امرأتين ويوحنا...
وأمام الصليب شعر يسوع أن الله قد تركه فصرخ:
الهي الهي لماذا تركتني...
أين أنت يا الله... لماذا تحجب وجهك عني...
لماذا تسلمني إلى أعدائي... لماذا تسمح بهذا العذاب؟ بهذه الآلام؟ بهذه الأوضاع؟ بهذا الظلم؟ بهذا التبجبح للقوي؟
ويعترف الله لمسببين : نعم تركتكم...

مارتن لوثر تحدث هنا عن الله الخفي، أي أن الأنسان يشعر أحياناً وكأن الله قد اختفى من الوجود... ما يدور في العالم من أحداث لا يمكن تفسيرها أو فهمها أو شرحها بل غموض في غموض...

أجل الله يتركنا أحياناً ولكن للحيظة...
ولكن عمل الله الأبدي والأزلي هو أنه معنا...
كل الأيام وحتى انقضاء الدهر... أنه معنا منذ الأزل وإلى الأبد...

وهنا يستخدم الله تشبيهاً جميلاً عن عنايته بالبشر وهي من أجمل الآيات التي كتبت في الكتاب المقدس...
«لأن الجبال تزول والآكام تتزعزع وأما أحساني
فلا يزول عنك وعهد سلامي لا ينقطع قال راحمك الرب...»
هذه اللحظات الصعبة التي قد نمرّ بها ... يشبهها أشعياء بالزلزلة... قد تحدث... وهناك مئات الزلازل الخفيفة في كل سنة تحدث في منطقتنا لا نشعر بها لخفتها... ومن ثم هناك كل بضعة أشهر زلزلة أكبر ٣-٤ درجات على مقياس ريختر نشعر بها بعضها يخيفنا والبعض الآخر لا نعيره اهتماماً...

ولكن كل مئة سنة تحدث زلزلة مخيفة تبلغ قوتها ما بين ٧-٨ درجات... آخر زلزلة من هذا النوع حدثت سنة ١٩٢٧... وينتظر أن تحدث الزلزلة القادمة في هذا القرن في الخمسين سنة الأخيرة...

في الطريق إلى عمان بعد الجسر يرى الأنسان كيف أن الجبال تزعزعت وتحركت من مكانها... لحظات مخيفة في حينها يظن الإنسان أن العالم منته لا محالة... وأن نهايته قريبة... ولكن هذا يحدث للحيظة... ثوان معدودة لا تزيد أية زلزلة عن دقيقتين... ولكن عهد الله هو أبدي...

الحياة تستمر ... والإنسان يلعق جرحه... ويلملم الأشلاء... وينظف الركام ... ويبدأ من جديد ... لأن الله يعطينا هذه المقدرة ... هذا السلام ... هذه النعمة... هذه القوة...

قد يتركنا الله للحيظة ... فنسقط كالطفل الصغير... المرتعب...
ولكنه يبقى كالأب الحنون خلفنا ... جنبنا... لا شئ إلا لمحبته وإحسانه...
ولأن علاقته معنا هي علاقة حب وغرام لا ينتهي أبداً

آمين.

سلام زائف

يوحنا ٢٠: ١٩-٢٩

بعد موت المسيح أمسى حال التلاميذ مخجلاً ومترديا...
وما إن قبض الجنود على يسوع إلا وتفرق تلاميذه،
وتشتتوا كما تشتتت الأغنام بعد مقتل راعيها.

ما إن صلب المسيح إلا وهرب أتباعه واختفوا في الظلام...
ما إن أغلق قبر السيد بالأختام إلا وانزوى أتباعه في منازلهم
محكمين خلفهم إقفال الأبواب.

حال التلاميذ بعد صلب السيد كان أشبه بحال العديد من الناس
زمن حرب الخليج، عندما راح العديد يغلقون على أنفسهم الأبواب،
ويسدونها بإحكام، ويجلسون هناك يأكلهم الخوف ويكبلهم القلق.
هكذا جلس التلاميذ في عليتهم وأقفلوا بابها بإحكام،
وقبعوا هناك في الظلام، إذ كانوا يخشون أن يكتشف اليهود
مكانهم فيطاردوهم ويلقوا القبض عليهم بل وقد يصلبوهم.

الكنيسة بلا المسيح تمسي دائما كنيسة مكبلة بالخوف،
منطوية على نفسها...
منزوية على عالمها...تعيش في الكتمان
وتصير مع مرور الوقت في طي النسيان.
الكنيسة لا يخاف أفرادها إلا على أنفسهم وعلى أرواحهم وعلى مراكزهم،
الكنيسة بلا المسيح تضحي كنيسة بلا شهادة بلا هوية وبلا رسالة.

أما يسوع فلم يترك كنيسته على حالها
كما لم يتركها سجينة خوفها...
بل في اللحظة التي قام المسيح ودحرج الحجر عن باب القبر،

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في أحد الفصح بتاريخ ١٩٩١/٤/٧.

فقد حطم في اللحظة ذاتها
الأقفال التي حبس التلاميذ أنفسهم خلفها...
قام المسيح واحترقت الأسوار التي قبع أتباعه خلفها...
قام المسيح وظهر لأتباعه القلقين، فتلاشى الخوف من نفوسهم...

قال لهم يسوع: سلام لكم...سلام لنفوسكم...سلام لأرواحكم...
سلام لعلاقاتكم بعضكم ببعض...
وما أن نطق بها حتى تلاشى الخوف من وسطهم
تلاشى خوفهم من مواجهة العالم...قضى على خوفهم من حمل الصليب
وتغلب على خوفهم من أن يشهدوا للمخلص الحبيب.
قام المسيح فأقام معه كنيسته بعد أن كاد الموت يشل حركتها...
قام فأعاد لها الحياة...أعاد لها النبض..
أعاد لها هويتها وبشارتها وغيرتها...
وأعطاها رسالة سماوية لعالم عاش في غياهب الجاهلية.

من خلف الأبواب الموصدة يعطي المسيح المقام لتلاميذه مهمة جديدة...
حسب إنجيل متى كان نص هذه المهمة: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم.
وحسب إنجيل مرقس...اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها.
وحسب إنجيل يوحنا...كما أرسلني الآب أرسلكم أنا.
من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت.

كما أرسلني الآب أرسلكم أنا...
بعد القيامة أصبح المسيح حيا في كل تلميذ من تلاميذه...
والتلاميذ أصبحوا سفراء الله على الأرض...
من خلالهم سيأتي المسيح إلى العالم...
من خلالهم سيمنح العالم مغفرة الخطايا.
ولكن التلاميذ كانوا بحاجة إلى قوة لينفذوا المأمورية الموكولة إليهم.
لذلك نجد المسيح ينفخ فيهم نسمة من روحه الخالدة.
ويطلب منهم أن يقبلوا هذا
الروح المعطى لهم. وحلول هذا الروح فيهم
يذكرهم كيف أن الله في الخليقة الأوليقد نفخ روح الحياة في الإنسان
جاعلا إياه كائنا حياً.
واليوم وبعد القيامة فالمسيح ينفخ في تلاميذه الروح القدس

فيصبحوا خليقة جديدة.
الروح القدس هذا يغير التلاميذ. والتلاميذ الخائفون يصبحون شجعاناً والكسالى يصبحون نشيطين واليائسون يصبحون فرحين.
اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه غفرت له. ومن أمسكتموها أمسكت.
من يومها أصبح الاعتراف بالخطايا أحد أركان الخدمات الأحدية...
فالإنسان يعترف بخطاياه. لأن الله قد أعطى كنيسته مهمة ومسؤولية مغفرة الخطايا.

هناك الكثير من الخائفين. الخائفين من عظم خطاياهم. المقيمين حول أنفسهم جداراً سميكاً كي لا يخترقه أحد ويرى خطاياهم. هناك الكثير من الناس القابعين في ظلمات زنزانات الخطية. يظنون أن الخطية قد انتصرت عليهم. ويظنون أن المسيح بعيد عنهم لا يستطيع الوصول إليهم وإنقاذهم.
لهؤلاء يأتي المسيح ويقول لهم من خلال الصلاة: سلام لكم...
لا تخافوا ولا تجزعوا. يا أبنائي مغفورة لكم خطاياكم.
ومن يؤمن بهذه الكلمات ينال غفران الخطايا...

الشيء الجميل في المسيح أنه يربط بين السلام وغفران الخطايا..
فالسلام بين الله والناس يقوم على التوبة والإيمان وغفران الخطايا...
وكذلك الحال في السلام بين الإنسان وأخيه الإنسان. إذ أنه لن يقيم بمعزل عن الإعتراف بالخطايا وطلب المغفرة.
هذه المعادلة أصبحت في هذه الأيام أمراً منسياً. قلما يتحدث عنها الإنسان:
ففي أثناء القصف على بغداد وفي اللحظات التي كانت فيها أرواح العراقيين تزهق راح الحلفاء يتحدثون عن النظام الجديد والسلام في الشرق الأوسط. وها هم اليوم يأتون إلى بلادنا ويتحدثون عن السلام. كما أن الآثام التي اقترفوها في العراق لم تحدث أبدا.

ما من سلام يقوم على جثث البشر. ما من سلام يقوم على الدمار
السلام مربوط بالتوبة وبتغيير المسار وبتغيير السياسة. وبتغيير السلوك.
غفران الخطايا يتبعه إرادة جديدة لترك الخطية ولبناء عالم البر. غفران الخطايا ينتج عنه ثمار المحبة وطول الأناة والصلاح. ليت الله يدخل نفوسنا الخائفة. وبيوتنا المضطربة. وجموعنا القلقة. ويعطينا سلامه ويملؤنا من روحه ويغفر لنا لنغفر نحن للآخرين. ونحيا حياة البر والقداسة.

آمين

عدم استقرار

لوقا ٢: ١٠-١١

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلاَكُ:
« لاَ تَخَافُوا ! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ:
أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. »

قبل عدة أيام اجتمعت مجموعة من الشخصيات الشرق الأوسطية تتحدث عن همومها واهتماماتها... وتتحدث عن آلامها وآمالها... وتفكر في حاضرها ومستقبلها...

ومع أن المواضيع تشعبت وتشابكت... والأحوال تنوعت وتلونت...
إلا أن موضوعاً واحداً ووحيداً كان وبلا منازع الحاضر الغائب في جلستهم:

أجل كان الخوف من القاسم المشترك بينهم...
ففي لبنان خوف من فراغ دستوري وغياب رئاسي...
وفي العراق هلع من تناحر طائفي واقتتال داخلي...
وفي الخليج هاجس من نمو لعنصر أجنبي على حساب المحلي...
وفي مصر خوف من مد أصولي...
وفي فلسطين رعب يُروع نظام فصل عنصري...
على الرغم من أحاديث سلام وهمي...

أينما نظرت أرى خوفاً وهلعاً ورعباً...
وليس هذا بموضوع شرق أوسطي... بل هو موضوع يلف الكرة الأرضية برمتها...
ففي هذه القارة خوف من إرهاب... وفي تلك القارة من الأرض قتال... وفي الثالثة فقر وجهل متراكمان...

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠٠٧/١٢/٢٤.

الخوف هو سمة هذا العصر...بل سمة من سمات الإنسان في أي عصر أو مكان... وكأن الإنسان مجبول بالخوف لا بالتراب. والمثير حقا أن الخوف يسيطر على الإنسان، زمن اليأس كما زمن اليسر والنجاح:
فإن هبط سعر الدولار خافوا من انهيار الأسواق ... وإن ارتفع سعر اليورو قلقوا من تراجع التصدير وتأثيره على الاقتصاد... وها هي الفتاة العزباء تخشى أن يفوتها قطار الزواج... أما المتزوجة فتخشى أن يهجرها زوجها ويبهر بغيرها من النساء...

وها هو المريض يرتعب أمام مرض عضال لا يرحم... أو موت محقق لا يبطئ... بينما للصحيح هاجس أن يأتيه الدور... على غير ميعاد... والفقير يحمل هماً كيف يقتات من معاش لا يكفي حتى للكفاف ... بينما الفتى قلق من غريم منافس، أو من انهيار في البورصات والأوراق...

أجل... أينما لمحت عيني رأيت خوفاً... وكلما تمعنت بين الأسطر أبصرت هلعاً وخشية وارتباك...
ويبدو لي أن حال البشرية اليوم هو كحال الرعاة الخائفين في القديم...
لذلك دعونا نتأمل في بشارة الملاك لهم:

« لاَ تَخَافُوا ! فَهَا إِنَّا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ:
أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. »

لم أفهم أيها الأحباء مغزى بشارة الملاك كمَا فهمتها في الأسابيع الأخيرة... في ذلك الاجتماع الذي ضم شخصيات شرق أوسطية... والتي جمع الخوف بينها. تحدثت أيضا امرأة تونسية من خلفية إسلامية كانت قد تنصرت - وإذا تنصرت امرأة أصبحت في خطر - ولكن وبعكس باقي الشخصيات لم أسمع في كلامها لهجة خوف ولا رعب بل أمن وإيمان وأمل.

في ذلك الاجتماع فهمت معنى بشارة الميلاد... فالخوف لا يرتبط بالواقع بقدر ما يرتبط برؤيتنا للواقع وبنظرتنا للأمور وبإيماننا في الحياة ... لقد رأيت الخوف يكبل أيدي الكثيرين... ويدفع للهجرة بآخرين... وأبصرت الخوف ينغص حياة الغني كالفقير... والغربي كالشرقي والمريض كالصحيح... ونظرت بشراً منهمكين في البحث عن سراب لا اثر فيه للخوف وعن شراب سحري يقي من الرعب... ويجعل الحياة في نعيم، ولها جنة على الأرض...

هناك هاجس اسمه الخوف يعيش في عقل الإنسان...
يسيطر على تفكيره ويشل حركته وينغص عليه عيشته...
أظن أنك تدرك عما أتحدث...
وأجزم أنك تعرفين ماذا أقصد...

كلنا نعيش أسرى هذا الخوف... وكلنا رهائن هذا الرعب... هذا الخوف هو الوسواس الذي يعيش في صدور الناس... ولكن مهلا... ففي مثل هذا اليوم قبل ألفي عام نطقت السماء لأهل الأرض " لاَ تَخَافُوا! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ.

أيها الأحباء...
لا خوفَ من الخوف بعد اليوم...
الخوف لم يعد يخيفنا... فقد سيطرنا عليه... لأن المخلص قد حررنا...
فهنا في هذه المدينة الوادعة وتحت نير الاحتلال الروماني... ولدت بشائر الحرية والخلاص... وهنا من رحم عتم الليل... بزغ فجر الضياء... وفي روابي هذه الصحراء فجر الله ينابيع المياه... وفي هذه الأرض القاحلة زرع اشتال أمل ورجاء...

لذلك لم يعد الخوف يخيفنا... بل قد تقهقر وملم صفوفه واندحر إلى الوراء... حتى الخطية لم تعد تقض مضاجعنا... بل فقدت سيطرتها علينا... وأصبحت بلا حول وبلا حياة...

هذا لا يعني أن الله يقينا المرض أو الخطر أو الأتعاب... بل سنبقى معرضين للمخاطر والتجارب والضيقات... ولكن إذ تجسدت الكلمة لم نعد وحيدين مع خوفنا.. لأن عمانوئيل قد ولد. فقد صار الله رفيقاً لنا... يشعر معنا في ضعفنا وخوفنا وضيقنا... قد نجتاز المياه... ونشعر بتيارات الأنهار تحاول أن تسحبنا ولكننا نكتشف أنه معنا لذلك فالأنهار لا تغرقنا... فقد نكتوي بالنار... ولكن لأنه معنا فاللهيب لن يفحمنا.

لذلك لا تيأس ولا ترتعب لا ترهب الهلاك
فأنا مأوى الورى يسوع لن ينساك

هذا ما تعلمناه في كنيسة الميلاد أيها الأحباء... وهذه هي الآية التي خطت على غطاء المذبح في الصدارة :

لاَ تَخَافُوا ! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ

فلقد علمنا الميلاد ألا نقضي حياتنا متسمرين أمام الخوف... مرتعدين ننتظر الفناء... ولقد أرادنا الله ألّا نسمح لكل ريح تهب أن تلعب بنا تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار وألا نرتعش أمامها كأوراق الصفصاف أمام تيارات الريح العاصفة.

لذلك ترانا لا نضيع الوقت نبكي على الاحتلال أو نلغي الزمن أو ننتظر حلولاً لسلام عادل وشامل ودائم قد يخلف الميعاد.. حقا هناك تحديات جمة تحيط بنا... تحديات تحاول أن تخيفنا وتعيق عملنا... هناك احتلال يقضم أرضنا وجدار يدمر مستقبلنا... ولكن كل هذا لن يخيفنا ولن يثنينا عن هدفنا...

إذا خلصنا الكلمة فقد أمسينا شهوداً لرجاء حي لا يعرف اليأس أو القنوط أو الاستسلام.

إذا زارنا الله ونصب خيمته في ربوعنا... فلن نخاف من طريقنا مهما وعرت لأن عمانوئيل معنا في حلّنا وترحالنا.

أيها الأحباء، أيها المستمعون...
من قلب مدينة بيت لحم...
ومن مهد السيد المسيح عليه السلام...
ومن جوار المذود التي تجسدت فيه الكلمة...
ومن فلسطين المحتلة نقول لأخوتنا في المشرق والمهجر:

لا تخافوا... لا تسمحوا للخوف أن يكبل عقولكم وقلوبكم وأياديكم...
بل كونوا شهود حياة في عالم الموت
ودعاة رجاء وسط اليأس
وصناع عدل وسلام زمن القهر
فلقد حرركم طفل بيت لحم. حرركم من الخوف...
فكونوا بالحقيقة أحرار.

آمين

في مواجهة الموت

تحتفل الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر من كل عام بعيد الإصلاح. وفي مثل هذا العيد تقف الكنيسة وقفة إجلال وإكبار لذلك المصلح الكبير الدكتور مارتن لوثر الذي حمل مشعل الإنجيل عاليا ليبدد ظلام القرون الوسطى عن أوروبا معلنا عن إشراق فجر جديد في تاريخ الكنيسة المسيحية. ويصادف هذا العام مرور أربعمائة وخمسين عاماً على وفاة المصلح مارتن لوثر. ففي صبيحة الثامن عشر من شهر شباط سنة ١٥٤٦ توفي مارتن لوثر عن عمر يناهز ثلاثاً وستين سنة.

وبهذه الذكرى لا بد من أن نقف لحيظة نتأمل فيها حياة هذا المصلح من نهايتها. فالإنسان لا يعرف حقيقته إلا ساعة موته. وإن أردنا أن نفهم حياة إنسان على حقيقتها فما من سبيل أفضل

من أن نتأمل مماته. فكما أن الصليب هو مفتاح حياة الناصري، كذلك كان الرّقاد هو مفتاح حياة مارتن لوثر. كيف ذلك ؟

لم يواجه مارتن لوثر الموت مرة واحدة، بل إنما تقابل معه مرات ومرات. وأمام شبح الموت هذا كان لمارتن لوثر مواقف لا تنسى. ونستطيع أن نحصي على الأقل أربع مرات تقابل فيها مارتن لوثر مع الموت وجها لوجه وتعارك معه فانطلقت شخصيته وامتحن معدنه وبان صدق دعوته.

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في عيد الإصلاح في الذكرى ٤٥٠ سنة على وفاة المصلح مارتن لوثر بتاريخ ١٩٩٦/١٠/٣١.

١. المرة الأولى كانت عام ١٥٠٥ وكان لمارتن
لوثر من العمر فيها اثنان وعشرون عاماً. كان
المصلح ما زال في ريعان شبابه، وقد أنهى
لتوه رسالة الماجستير في العلوم
وانخرط في دراسة القانون وتدريس الفلسفة.

في ذلك العام توفي – فجأة ودون سابق إنذار–
أحد أقرب أصدقائه إليه، وأحبّهم إلى قلبه، فتسلل الخوف
إلى قلب مصلحنا وراح يسأل نفسه ماذا سيكون
مصيره لو انقضت حياته بهذه السرعة وبدون سابق إنذار،
فراح شبح الموت يلاحقه ليل نهار ويطرد النوم من عينيه.
وفيما كان سائراً في الغابة وهو في حالة نفسية مضطربة
يفكر في سر عدو الإنسان المخيف هذا، إذ بصاعقة
رهيبة تباغته ولم تبعد عنه سوى بضع
سنتمترات، فألقى بنفسه على الأرض وخيّل
له أن يد الموت قد طالته أخيراً فصرخ مستنجداً
بالقديسة حنة ونذر أنه إن سلم من خطر الموت فسيهجر
العالم ويصير راهباً.

هذه كانت مقابلة مارتن لوثر الوحيدة قبل اكتشافه
مغزى الإنجيل الجديد وبشرى التبرير بالإيمان وجاءت
هذه المقابلة قبل اثني عشر عاما من انطلاق شرارة الإصلاح.

وإذا تساءلنا عن موقف لوثر أمام الموت قبل الإصلاح نقول:
إن مارتن لوثر كان يرتعب من الموت، يهرب، يستنجد، كان كثير الهلع
يرتجف، يخاف على حياته، وهذا هو نفس موقف
مارتن لوثر من الله قبل الإصلاح، فقد كان الشاب اليانع

مارتن لوثر يرتعد من الله، يموت خوفا منه، وكان يسأل
دوما: كيف أنجو من عقاب الله، وكيف أحظى بإله رحيم
ومن ينقذني من الهاوية.
فأمام شبح الموت تظهر
علاقة الإنسان بالله على حقيقتها.

٢. أما المرة الثانية التي تقابل فيها مارتن لوثر مع الموت فكانت بعد الإصلاح بأربع سنوات وذلك أمام مجمع فورمس الشهير في ١٥٢١/١/٢٨. فقد عقد هذا المجمع بناءً على رغبة البابا بهدف التخلص من مارتن لوثر بأية وسيلة. لم يكن هذا مجمعاً بقدر ما كان جلسة محاكمة للمصلح وآرائه. ولقد حضر هذا المجمع عدد كبير من الملوك والأمراء وما يربو على الخمسة آلاف مشاهد.

في هذا المجمع طلب السفير البابوي من الملوك والأمراء محاكمة مارتن لوثر لأن مؤلفاته تحوي من الأخطاء والأضاليل ما يكفي لحرق مئة ألف هرطوقي. وكان هذا بمثابة حكم بالأعدام على مارتن لوثر. وأنهى السفير البابوي كلامه بأن توجه إلى مارتن لوثر قائلا:-

«يا مارتن، هل تعرف بأن هذه الكتب- مشيراً إلى حوالي عشرين مجلدا موضوعة على طاولة- هي من تأليفك؟ وهل أنت مستعد أن تسحب هذه الكتب وما تحتويها؟ أم أنك تصر عليها؟ فأجاب مارتن لوثر على السؤال الأول بالإيجاب. أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني، فقد طلب مهلة للتفكير في الإجابة عليه. وأعطي لوثر هذه المهلة على أمل أن يتراجع عن أفكاره وينجو من الموت المحتم.

في ذلك اليوم صلى مارتن لوثر صلاة تعتبر من أجمل مؤلفاته قال فيها: « رباه، ما أفظع هذا العالم. فقد فتح فاه ليبتلعني أنا المسكين إذا أنا اتكلت على قوة هذا العالم فقط، فشلت وضاع كل شيء. لقد صدر علي الحكم...ولكنني لن أتركك ولو احترق جسدي ولو قطعت إرباً إرباً. إن القضية ليست قضيتي، بل قضيتك...أنت اخترتني لهذا العمل وأنا أعرف ذلك يقينا. قف يا إلهي إلى جانبي من أجل خاطر يسوع المسيح ابنك الحبيب. فهو قوتي وحصني الحصين. آمين. »

في اليوم الثاني استأنف المجمع أعماله وسأل سفير البابا لوثر إن كان سيدافع عن كتبه ومعتقداته أم يتخلى عنها.

فأجاب لوثر، لا أستطيع أن أخضع إيماني لا للبابا
ولا للمجامع، لأن البابوات والمجامع تخطئ، وكثيراً ما
تناقض قراراتهم بعضها البعض. ولكن إذا أثبتم لي في الكتاب المقدس
وبالحجة والمنطق بأن ما كتبته هو خطأ
فسأتراجع وإلا فلن أستطيع أن أتصرف ضد ضميري.
وبعد أن وجه نظره إلى من حوله قال بشجاعة وثبات:
«هذا هو موقفي الثابت ولا أستطيع أن أتراجع فليساعدني الله. آمين.»

يا للبر: لوثر قد تغير. الإصلاح لم يغير الكنيسة إلا بعد أن غير
لوثر نفسه. لم يعد مارتن يخاف الموت.
«أين شوكتك يا موت؟ أين مخالبك يا هاوية؟.»

الموت فقد أنيابه. لوثر تأصل في الإنجيل
وثبت فيه فلم يعد يزعزعه الموت. هذا هو موقفي الثابت.
من يستطع أن يصمد أمام حكم الإعدام هذا الصمود
لا بد وأن يكون مستنداً إلى صخر الدهور.

٣. المرة الثالثة التي تقابل فيها لوثر مع الموت كانت
بين أعوام ١٥٢٥ – ١٥٢٨. حيث كانت هذه الأعوام صعبة
في حياة المصلح. فأوجاع ناجمة على حجارة في الكلى راحت
تنخر جنبيه. والطاعون راح يحصد العديد من
جيرانه وأصدقائه بل وحتى طال أفراد عائلته.
بل وراح أتباع البابا يحرقون أتباع لوثر في الأسواق
العامة. إذن ها هو الموت يحيط بالمصلح.
في هذاالوقت بالذات كتب مارتن لوثر ترنيمة الإصلاح الشهيرة التي تقول:
«الله ملجأ لنا الأعداد ١+٣+٥+٦
إذا كانت هذه الترنيمة هي رد المصلح على الموت،
على الطاعون والاضطهاد والمرض.

ترنيمة نشتمّ منها رائحة النصر. ولوثر
لم يعد يخاف أي شيء. لماذا؟ لأنه واثق
بأن الله معه. وإن كان الله معنا فمن علينا:
وكأن لسان حالنا يقول مع الرسول بولس:

لأنني متيقن أنه لا موت ولا حياة، لا علو ولا عمق
لا رياسات ولا سلاطين تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع.

٤. أما المرة الرابعة والأخيرة والتي تقابل فيها لوثر مع الموت
فكانت عندما اقتربت منيته. فأصاب أتباعه الخوف
عندما اقترب شبح الموت من زعيمهم. أرادوا الاطمئنان
فسألوه: «هل تريد أن تموت على عقيدتك، أم تريد
أن تتراجع؟ لقد اقتربت من المثول أمام سيّدك؟
وستقف أمام الدّيّان، فراجع نفسك؟ ولكن مارتن بقي ثابتاً
يتحلى برباطة جأش، وعلى فراش الموت نظم قصيدة أخرى شهيرة تقول:-
«بسلام وفرح أنا أسير على هدى الله
قلبي ونفسي مطمئنة تحظى بسلام
وكما وعدني الله فإن موتي لن يكون أكثر من رقاد.»

ثم تمتم قائلا:
«أيها الآب في يديك أستودع روحي، وأسلم الروح.»

حياة المصلح لن نفهمها إلا إذا فهمنا هذا الصمود أمام الموت
وهذا السلام أمام المنيّة. الإصلاح لن نسبر غوره
إلا إذا أدركنا هذا الثبات وسط الزلازل.

ما أحوجنا إلى روح الإصلاح أيها الأحباء،
فقد أصبحنا نغير معتقداتنا وكنائسنا كما نغير ملابسنا
أصبحنا كسفينة تائهه تلاطمها الأمواج المزبدة
تلعب بها يمنة ويسرى، تقذفها حيناً هنا وحيناً
هناك، ونسينا أن الذي يبقى رهينة للأمواج
سيتعب ولن يصمد أمام شبح الموت، بل سيبقى
الخوف والهلع يحيطان به، لن تجد الطمأنينة طريقا إلى قلبه،
لأن قلبه يتعلق بما يفنى ولم يكتشف بعد أن الارتباط
بالله أقوى وأحلى من أي شيء آخر.

الله ملجأ لنا وقوة على الدوام
عون شديد ثابت في الضيق حصن وسلام

الله وسط شعبه حصن فلا نلقى ضرر
يرعى الكنيسة التي قدسها فادي البشر
يعينها الإله تشبع من رضاه
مسيحنا الجليل يلبسها الإكليل
في وقت اقبال السحر

لو أن دنيانا امتلأت أبالسة تنوي الخصام
فلن نخاف شرها إذ عوننا فادي الأنام
إبليس خصمنا قد دين وانهزم
مهما بنا غدر سلاحه انحطم
حطمه الفادي المجير

كيف عدت إلينا يا عيد

غلاطية ٤: ٤-٧

منذ مئات السنين اعتاد عيد الميلاد أن يأتي ليزور مدينة بيت لحم...
في كل عام وفي الموعد المحدد كنا نرى المدينة تستعد لاستقبال ضيفها العزيز...
فترفع الأعلام... وتضيء الأنوار... وتُنصب الأشجار وتزين الطرقات...
وكلما قربت ساعة وصول الضيف كلما ازدحمت شوارع المدينة
بالسكان والزوار والسياح.

هذا هو عيد الميلاد كما اعتدنا أن نراه كل عام.
أما هذا العام، فلم يأت موكب الميلاد لزيارتنا...
انتظرناه كالمعتاد لكن دون جدوى...
ترقبناه لكن دون أي أثر يذكر... للسنة الثالثة انقطع العيد
عن القدوم إلى مدينتنا!

حيرة اخذت تدب في قلوبنا... قلق راح يشغل تفكيرنا...
لماذا لم يأت عيد الميلاد لزيارتنا؟
ألعله نسينا؟
أتراه ضل طريقه إلينا؟
أم أنه قد تأخر عنا في بولندا أو المانيا الشرقية فقرر الاحتفال هناك أمام بوابة براندنبرغ، حيث سيفرح لمرأى الإخوة يتعانقون بعد غياب طويل وحيث سيرقص طربا على أنغام صيحات الحرية المتدفقة من أفواه الطرفين؟؟

أيها الأحباء، لقد أتى عيد الميلاد لزيارتنا... مر كعادته أمام بلدتنا...
لكنه لم يستطع التعرف على طرقاتها...
فطرقات بيت لحم المكتظة... أصبحت خالية،
وشوارعها المضاءة أضحت مظلمة، ومتاجرها الفرحة...
راحت تنوح لقلة مرتاديها.

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في عيد الميلاد بتاريخ ١٩٨٩/١/٢٥.

سكون غريب راح يخيم على بيت لحم... ولكنه ليس بسكون المغارة،
بل هو سكون الحرب والظلم والاضطهاد...
لقد أتى عيد الميلاد الينا ...توجه كعادته إلى مدينة بيت ساحور...
قصدها ليسهر مع الرعاة المتبدين الساهرين... قصدها ليطرب
على أنغام جند الملائكة المرنمين ... المجد لله في العلى وسلام للعالمين.

بحثَ موكب الميلاد عن الرعاة فلم يجدهم، سأل عنهم فقيل له بأن هيرودس قد أصدر أمراً باعتقالهم... استفسر عن مواشيهم فأخبروه بأن رجال الضرائب قد اقتحموا حظيرتها وصادروها...

انتظر أن يسمع ترنيمة جند الملائكة...فلم يصل إلى أذنيه سوى ضجيج جنود الاحتلال المتمركزين على أسطح المنازل...وكأنهم قد وقفوا هناك ليمنعوا جند الملائكة من اختراق المنطقة العسكرية المغلقة، خوفا من أن يعرب هؤلاء عن تضامنهم مع بلدة الرعاة.

قد لا نستطيع، أيها الأحباء، الاحتفال هذه السنة بعيد الميلاد،
قد لا نزين الأشجار وقد لا نضيء الطرقات ...ولكننا لا نقدر
في مثل هذا اليوم إلا أن نذكر طفل المغارة ...لا بد من أن نذكره
لأن في ميلاده لنا عزاء وفي ذكراه لنا أمل ورجاء...

فلقد ولد يسوع في أيام هيرودس الملك... ولد في بيت لحم
مع أن نجمه أضاء في المشرق...أضاء معلنا عن ولادة ملك جديد
يكون اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام...

وما أن ولد يسوع في بيت لحم، وأصبح مولد الملك الجديد على مرأى ومسمع من هيرودس إلا وتسرّب الخوف إلى نفسه... فلقد رأى في ولادة الطفل الصغير نهاية لمطامعه التوسعية... فخاف على منصبه... خاف على كرسيّه وخاف على مملكته... خاف أن يطالب هذا الطفل بوطن وبحكومة
هكذا هو أمر كل طاغية ... لا يخاف من شيء مقدار خوفه من الأطفال...

ولهذا كان لابد لله من أن يظهر كطفل صغير وضيع...
إذ قد اختار الله الضعفاء ليخزي بهم الأقوياء،
واختار الأطفال ليهزم بهم الأبطال!

وهكذا أصبح الإله العظيم طفلاً حقيراً.
وهكذا أضحى الإله القوي طفلاً صغيراً أعزلاً...
مع ولادة طفل بيت لحم أحس هيرودس بأن أيامه قد أضحت معدودة.
لذا أصدر أمراً جنونياً يقضي بقتل جميع الأطفال من ابن سنتين فما دون في بيت لحم وفي كل تخومها... وراح جنوده ينفذون الأوامر...

راحوا يقتلون الأطفال الأبرياء... فسقط منهم عشرات بل مئات ومئات...
حينئذ تم ما قيل بإرميا النبي القائل: صوت سمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير...راحيل تبكي على أولادها ولا تريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين...

راحيل، تلك الأم القابعة على مشارف بيت لحم، راحيل هذه
وإن ماتت فما زالت ترى ... ما زالت تسمع ما يحيط ببلدتها...
راحيل ورغم موتها ما زالت تذرف الدمع ساخناً.
ما زالت تبكي... فلذات أكبادها... ما زالت تبكي
مصير أبنائها الذين ما فتئوا يسقطون يومياً فوق تراب بلدتها.

وسط أصوات عويل راحيل هذه، ولد المسيح...ولد في بلدة هي ليست بلدته.
ولد فلم يجد منزلا يأويه، ولد ولم يجد إلا التراب ليفترشه، وزيتونة يلتحفها وحجراً ليسند إليه رأسه.

ولد كطفل مهجّر/ وما أن رأت عيناه النور، ومرت على ولادته أيام قلائل إلا واضطر إلى أن يرحل... اضطر إلى أن يهرب... اضطر إلى أن يلجأ إلى البلدان المجاورة، فتشرد في بقاع الأرض يطلب ملجأ وملاذاً... يومها أصبح الله طريداً لاجئاً مهجراً ومشرداً...

أترون أيها الأحباء، كم هي قريبة قصة الميلاد من واقعنا،
ألا تشعرون كم هي حية وكأنها كتبت على زماننا،
أتحسون كم هو قريب طفل المغارة من شعبنا... حتى أننا نخاله واحداً منا ... طريداً كأبنائنا... مهجراً كإخوتنا ولاجئاً كجيراننا؟؟؟

حقا فلقد ولد لنا ولد وأعطانا الله ابناً...
إنه منا وفينا، منا وإلينا، شاركنا مصيرنا...وقاسمنا تهجيرنا...

لو أتانا الله على شكل طاغية لكرهناه، ولو أتانا في ثياب ملك
لخفناه وتملقناه، ولكنه أبى إلا أن يأتي إلينا على شكل طفل حقير ضعيف
أعزل مهجر، فعرفناه وأحببناه وصدقناه...
قصة الميلاد تزفّ الينا بشرى ميلاد الطفل الوضيع،
ولكنها تخبرنا أيضا عن موت هيرودس الطاغية الخبيث،
قد يتجبر هيرودس، قد يسجن ويعذب، قد يغتصب ويدمر...

لكن أيامه معدودة، وسنيّه محدودة... هيرودس حكم ثلاثاً وثلاثين سنة
ومات ...هتلر حكم اثنين وعشرين سنة ومات...تشاوشيسكو
حكم خمساً وعشرين سنة ومات..هؤلاء جميعهم شَردوا، وظَلموا، وقتلوا
لكنهم لم يستطيعوا أن يملكوا إلى الأبد...أما طفل المغارة
فشُرّد وظلم وصلب ولكنه حي إلى الأبد...

مات هيرودس ورجع الصبي إلى وطنه...رجع ليعلم وليبشر
عاد ليشفي ويجبّر...عاد ليبني صرح ملكوت الله...

أيها الأحباء عندما يولد الطفل في قلوبنا ...ويملك الرب
على ضمائرنا يموت هيرودس في نفوسنا...
يموت خوفنا من جبّره ... ويموت قلقنا لشخصه
عندما يولد الطفل في عقولنا ... ويملك على حياتنا
ننهض ونبني صرح دولتنا ... ننهض ونعطي
ونبشر ... ننهض ونعلم ونجبّر...

ليت الرب يولد فينا هذا الصباح، فيموت هيرودس،
وننهض لنبني ملكوت العدل والسلام.

زلزلة

متى ٢٨-١-١٠

أيها الأحباء في الرب،

في معرض سرده لقصة القيامة، ينفرد البشير متى
بذكر الزلزلة العظيمة التي حدثت في صباح الأحد،
"وإذا زلزلة عظيمة حدثت-لأن ملاك الرب نزل من السماء
وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس عليه."
زلزلة عظيمة حدثت يوم الأحد،
وكأن الأرض لم تقو على أن تحتفظ بجسد يسوع بين ضلوعها،
ولم تقدر على أن تحوي رفات المخلص في ثناياها،
فانتفضت، ارتعشت، تزلزلت...
وكيف لا تنتفض وقد دفن في أديمها معطي الحياة..
كيف لا ترتعش وقد لامست بعناصرها رب العباد...
كيف لا تتزلزل وقد أسجي في باطنها نور السماء...
"أجل، وإذا زلزلة عظيمة حدثت... "

أيها الأحباء في الرب،

نحتفل اليوم وللمرة الأخيرة في هذا القرن، نحتفل بعيد القيامة.
وإذا كان أحد القيامة هو يوم الزلزلة الكبرى،
فلقد كان هذا القرن العشرين وبحق قرن الزلازل...
وما أكثرها من زلازل...
أو لم تكن الحربان الكونيتان زلزلتين إذ حصدتا من
الأرواح معا ما يزيد عن مئة مليون نسمة،
حصدتهم آلة الحرب وعتاد الدمار. زلزلة وأي زلزلة
أو لم تكن القنبلتان الذريتان اللتان ألقيتا على هيروشيما

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في عيد القيامة بتاريخ ١٩٩٩/٤/٤.

وناغازاكي زلزلتين أكلتا الأخضر واليابس، ودمرتا
الأرض والزرع والإنسان. زلزلة وأي زلزلة
وماذا نقول عن زلزلة العقد التاسع من هذا القرن،
عندما انهار - ودون سابق إنذار- العملاق الشيوعي...
وانزاح الستار الحديدي وانهار جدار برلين...
زلزلة وأي زلزلة...
وماذا نقول عن الزلازل الشرق أوسطية
واندحار القومية العربية... أجيال وأجيال
اعتزت بلغة الضاد...وتغنت بكنعان وقحطان...
وسكرت على أناشيد الوحدة والعروبة والقومية...
وإذ بها تفيق فجأة على أصوات حرب الخليج،
لتجد العرب وقد راح يأكل بعضهم لحم الآخر،
ولتكتشف بأن العروبة لم تكن إلا أفيوناً، أو كذبة ملفقة،
أو حلماً من أحلام اليقظة...زلزلة وأي زلزلة.
وماذا عن زلازل الدين والتدين؟
لقد تنبأ الفلاسفة بأن الأديان ستصبح من مخلفات
القرن العشرين، وبأن ما من مكان لها في الألفية الثالثة...
ونادوا بأن الله قد مات، وبأن العلم قد اعتلى
عرش الإله، حتى نجيب محفوظ في رواية "أولاد حارتنا"
كان قد تأثر بهذه الأفكار...

ولكن فجأة وقبل أن تغرب شمس هذا القرن
فإذا بالأديان تنزع عنها كفنها...وتضعه جانبا...
وتنهض بعد أن دبت دماء جديدة في عروقها...
فها هي شبّابة تصدح بالإسلام حلاً...
وأخرى بالهندوسية مذهباً...
وأخرى بالأرثوذكسية سبيلاً...
زلزلة وأي زلزلة...

وينقصنا الوقت إن تحدثنا عن زلزلة البيولوجية الحديثة...
وكيف يتلاعب الإنسان بكروموسومات الحياة وبخرائط الوراثة..
ويعيد رسم الجينات. زلزلة وأي زلزلة...
لا عجب إذاً أن يكون الخوف سمة هذا العصر..

أمام هذه الزلازل والبراكين يشعر الإنسان وكأن الأرض
تتمايل تحت أقدامه... يشعر بأنه مسكين، ورقة
في مهب الريح... وكأن ما من شيء يركن إليه... ما من شيء
يمسك به... ما من شيء يستند إليه.
أجل أينما صوّبت بصرك، سترى
أجساداً منهوكة...وعقولاً مضطربة
أعصاباً متوترة...نفوساً مريضة...
وقلوباً حائرة.

أجل الأغلبية الساحقة من سكان الكرة الأرضية لخائفون...
في صربيا وكوسوفو يخافون الحرب..
في إسرائيل وفلسطين يخافون السلم...
في العالم الإسلامي يخافون الضعف...
وفي العالم العربي البطالة...
فالخوف أكبر عدو للإنسان...
زلزلة القيامة تحرك فينا هذه الزلازل مجتمعة...
إنها تثير زوبعة داخل نفوسنا...
تصيرنا أشباه أموات...

ولكن وفجأة ومن القبر نسمع بشارة القيامة...
لا تخافا أنتما...
العالم يخاف ولكن لا تخافا أنتما...
العالم يرتعد ولكن لا داعي أن ترتعدا...
الكون يتمايل ولكن لا ترهبا بل اثبتا...
إنكما تريدان يسوع المصلوب...
تبحثان عن الماضي، تريدان أن ترجعاه،
تنظران إلى الخلف، تودان لو استطعتما أن
تمسكا عقارب الزمن بأيديكما فلا تهرب منكما...
إنكما تريدان يسوع المصلوب...
تريدان أن يبقى كل شيء على حاله...
لكن الكل يمضي ويزول، لا شيء يبقى لا يحول
لا يبقى عشب في الحقول والزهر أيضا للذبول
أم تأتي وأخرى تذهب...

ممالك تصعد وأخرى تهبط...
اكتشافات، اختراعات ...حروب ... زلازل...
كلها لا تخيف، لأن يسوع الناصري قد قام...
قام مفجراً القبر... مكسراً القيد ... مزلزلاً الأرض...
محولاً القبر المعتم إلى نور وضّاء...

إنه قد قام من الأموات... وها هو يسبقكم إلى الجليل...
إنه قد قام... فلا تبحث عنه في أنقاض القرن العشرين...
لقد سبقكم إلى القرن الجديد...هناك تجدونه...
إنه قد قام ...فلا تمسك بقشور الحياة والإيمان،
فتكون كمن يسعى ليمسك الماء الحي في بئر متشققة...
المياه الحية تزبد وتتحرك وتحيا وترفض أن تسجن
في المستنقعات ... المسيحية هي مياه حية، لا مياه نتنة.

إنه قد قام من الأموات...لقد سبقكم...
إنه يجري أمامكم ... لا تخف أن تتقدم... لا تخف
أن تتغير ...لا تخف أن تنطوي ...إنه أمامكم...
لا تبحث عنه في الخلف...فمن يضع يده على المحراث وينظر
إلى الوراء لا يصلح لملكوت الله..
إنه قد قام من الأموات ... لقد سبقكم...
فدع الموتى يدفنون موتاهم... كفاك ندباً...
كفاك بكاء على الأطلال...كفاك هجاء للزمان...

بل قم ...قف ...انهض أيها المائت...انفض عنك الأكفان
قم احرث المستقبل... ابذر الكلمة...اغرس شتل الإيمان...
لا تخف الزلازل... لا تخش البركان...
قم قم واشترك في عمل الرب المقام...
قم، قم حول المقابر إلى أراض خصبة...
حول الأرض المعتمة إلى سماء زرقاء...
إذ قد غلب الحمام... منتصراً على الجحيم
تخفق فوق رأسه الأعلام... سائرا في موكب النصر العظيم
هللوا...هللوا... هللويا... الرب قام.

انتفاضة الأقصى

لوقا ١٤: ٢٥-٣٣

في هذا الأحد، ونحن نعيش تحت الحصار، ارتأيت أن أختار قراءة معينة لنتأمل فيها، وليس هذا من طبعي، فعادة ما أعظ عن القراءة المعينة، ولكن يبدو لي أننا كشعب فلسطيني بحاجة إلى كلمات توجهنا في خضم معركتنا هذه. وفي القراءة هذه عبر ودرر علنا نستطيع أن نسبر غورها.

دعونا نفكر أولا في المشهد...
يسوع في طريقه من الجليل إلى القدس، لا نعرف موقعه أو المكان الذي قال فيه هذه الكلمات... ولكنه في الطريق، يسير في مقدمة موكب كبير... جموع كثيرة كانت تسير معه ووراءه... وكأنه كلما دخل قرية كانت جموع أخرى تلحق به، بعضها يدري ماذا يفعل، والبعض الآخر ربما رأى هذا عرساً للرقص فيه، أو مظاهرة للاشتراك فيها.
كانت هذه فرصة أخرى سانحة ليسوع لينصب نفسه ملكا على الجموع، خطبة حماسية واحدة وسترفعه الجموع على الأكتاف وسيهتفون له بأنه المسيح المنتظر والمخلص الموعود.
كانت هذه فرصة سانحة ليسوع ليداعب عواطف الجموع ويحرك الأدرينالين في عروقها فتهبّ تتوثب وتتوعد...
ويلتفت يسوع إلى الجموع، فيهتفون له ويحيونه بترديد الأهازيج، ثم يهدأون ينتظرون أن يسمعوا منه كلمات رنانة ليست كالكلمات...
ورويدا رويدا يفتح يسوع شفتيه قائلا...
إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وأقرباءه وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذا...
يا للمصيبة... أي كلمات هذه؟ التي يصرح بها يسوع ، لقد سقط يسوع في امتحان القيادات الجماهيرية، لقد قال الشيء الخطأ في المكان الخطأ... فبدل أن يعبئ الجماهير، ها هو يضعف من حماسها...
وبدل أن يحثها على التماسك والتعاضد والوحدة الوطنية والتلاحم والتكافل

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بتاريخ ٢٠٠٠/١٠/١٥.

وكل هذه المفردات التي نسمعها صبحاً ومساء، هاهو يقول... إن كان أحد لا يبغض أباه وأمه...
أجل سقط يسوع في امتحان القيادات الجماهيرية...فبدل أن يؤجج العواطف الملتهبة، وأن يردد شعاراً صغيراً وبسيطاً يصبح أنشودة الجماهير
هاهو يدخل في الفلسفة
بل ويشكك في وحدة العائلة والحمولة والمجتمع.
بل يشكك الإنسان حتى في نفسه...
والمظاهرة ليست الوقت المناسب للتشكيك في الذات، بل في دعم المعنويات، وحشد الطاقات النفسية أيضا.
البعض يظن أن يسوع لم يكن يوما سياسيا بل فيلسوفا... لذلك لم يستغلّ أبدا طاقات الجماهير...والكنائس الحرة تفتخر بأن يسوع لم يكن سياسيا ولم يفهم يوما في السياسية لأنه ابن الله المخلص ... وهذا هذيان. والبعض الآخر كثيرا ما يقارن بين النبي محمد السياسي والعسكري ويسوع. فالأول يهتم بالأرضيات والآخر بالسماويات. وهذا أيضا هذيان. فيسوع سياسي ولكن من نوع آخر...بعكس الكثيرين من السياسيين فهو...

١. لا يثق كثيراً بالجماهير وبغضبها وبأهازيجها...لقد كان يعلم أن الجماهير سريعا ما تنقلب، كالرياح كثيرا ما تغير اتجاهاتها ... يوما تصرخ ... أوصنا في الأعالي... ويوما آخر أصلبه أصلبه ... اليوم تغني لانتفاضة قومية، ومرة أخرى لانتفاضة وطنية، وثالثة لانتفاضة دينية.

٢. يسوع لم يهتم بنفسه وبمجده، لم يطلب أن ينصب ملكاً، بل على العكس رفض هذه التجربة مرات كثيرة... مرة يوم جربه الشيطان في البرية، ومرة أخرى عندما حاولت الجموع أن تختطفه لتنصبه ملكا، كما فعلت مع داود، مرة أخرى يوم دخل القدس من بواباتها الذهبية.
مجداً لنفسي لست أطلب... ولكنني أطلب مجد أبي...
في مدرسة يسوع نتعلم معنى القيادة الحقيقية...
فأغلب السياسيين يرون في الجماهير سلماً للارتقاء إلى السلطة...
أو ورقة رابحة في المفاوضات، أو مدعاة لتمرير سياسات...
أو وسيلة لتحقيق غايات.

٣. يسوع يركز على الفرد...إن كان أحد لا يأتي إلي...
على الفرد ألا ينقاد وراء الجماهير انقياد الغنم وراء التيس...

بل إن يسوع القائد يريد من الفرد أن يفكر في مسيرته وفي توجهه...
في عواطفه وفي علاقاته وفي تصرفاته...
يسوع يريد أن يجعل من المفعول به الإنسان الذي يتحول إلى
إنسان فاعل، هو يتخذ قراراته عن قناعة...
يسوع يريد أن يحول الإنسان الذي ينقاد وراء غريزته وعاطفته إلى إنسان واع لما يفعل...وكمسيحيين يجب أن يكون هذا هو الهدف من وراء مدارسنا...الاهتمام بالفرد كي يستطيع أن يكون قادرا على اتخاذ القرارات، وكي يصبح فاعلا لا متفرجا تلعب به أهواء الوعاظ...المشكلة الحقيقية كما أراها هي مشكلة تربوية...كم من أجيال وأجيال خرجنا كان الإمام أو المعلم يأم فيها، فإذا بها تقف مكتوفة الأيدي تعيد وتصرخ ما يقال لها وكأنها صدى لغيرها ليس إلا... جماد لا أكثر ولا أقل... وكل منا ما زال متاثراً بهذه التربية التي شربنا من حليبها أطفالا وشبابا... هذا هو دور الكنائس الوطني في فلسطين والعالم العربي والإسلامي... هذا الدور ينبع من إيماننا ولا خلاص لهذا العالم إلا به وبنا ...
هذا العالم العربي ما زال يتخبط في غياهب الجاهلية، وإن كان قد أقلع عن وأد بناته، فها هو يئد كل يوم، أبناءه ودماءهم تصرخ...
بأي ذنب نقتل؟

٤. قلت يسوع سياسي ولكن من نوع آخر...فبعكس الكثير من السياسيين فهو... يفكر... يخطط... يحسب قبل أن يقدم على أية خطوة... «ومن منكم وهو يريد أن يبني برجاً لا يجلس أولاً ويحسب النفقة، هل عنده ما يلوم لكماله؟... وأي ملكٍ إن ذهب لمقاتلة ملك آخر في حرب،لا يجلس أولاً و يتشاور: هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً؟»
الجماهير لا تريد، أيها الأحباء، أن تجلس، أن تفكر، أن تخطط...
الملك الذي يملك فقط عشرة آلاف فرد عليه أن يحسب حساباته
قبل أن يلاقي الجيش الآخر الذي يتفوق عليه في العدة والعتاد...
وإن أرسل رسولاً يدعو للصلح تظنه الجماهير قد استسلم،
وتنسى أن الصلح هو سيد الأحكام...

ولو كان العدو الذي نقاتله يفوقنا بالأعداد فقط لقلنا أن معنويات الشعب ما زالت عالية ومرتفعة وتعني الكثير... ولكن الملك الآخر لا يتفوق علينا بالأعداد فحسب بل بالعدة والعتاد أيضاً، وقد دخلنا عالما لم تعد معنويات الشعوب تصرف في أي مصرف كان، لأن معدات العدو يتحكم بها عن بعد فلا ساحة ولا معركة ولا قراقع سيوف ولا خيول...ولا يستطيع الملك الأول أن يطلب من الملك

الثاني أن يقاتل فقط بنصف عتاده، بل على الملك الحكيم أن يحسب حساباته وحسابات عدوه جيدا...

وأقول أننا كشعب عربي وفلسطيني، لم نتعلم من أخطائنا في الماضي ...في حرب الأيام الستة ... وأصبحت الأغنية الوحيدة التي نرددها «الأمة العربية من المحيط إلى الخليج»، ودوت أصوات الجماهير في سماء الشرق الأوسط تردد كذلك... «الأرض بتتكلم عربي...الأرض الأرض»..
ودخلت الجيوش العربية بقيادة قائد أثار حماسها إلى معركة لم تحسب حساباتها، فاحتُلت الضفة الغربية، والجولان وسيناء، وصارت الأرض التي تتكلم العربية، تتكلم العبرية، والروسية وينقصني الوقت للتحدث عن حرب الخليج الثانية وعن أم المعارك، وعن طاقات المنطقة التي أهدرت...

جماهيرنا ما زالت جاهلة أيها الأحباء،
وغالبية أئمتها ومثقفيها جاهلة أيضا لم تتعلم الحساب في السياسة
لذلك ومنذ مئات الأعوام ما زلنا نتغنى بانتصاراتنا ونحن نسير
من نكسة إلى نكبة...

المنكوب، والضعيف يستطيع أن يخطب بعطف المجتمع الدولي والعربي،
ولكن المطلوب هو أن يصبح هذا المنكوب الذي لا حول له ولا قوة
إلى فاعل، مقاتل يخطط ويحسب قبل أن يتحرك.
ما أحوجنا أيها الأحباء إلى أن نتتلمذ جميعا في مدرسة
يسوع السياسي المحنك والمخلص.
ربما نحن طلاب نحضر محاضرات ليسوع المعلم،
نجلس في مقاعد الكنيسة الأحد تلو الآخر،
ولكننا ما زلنا بعيدين عن أن نصبح تلاميذه،
يفهمون فلسفته وسفراء ينادون بهذه الفلسفة الفريدة.
ليتنا نحمل الصليب ونسير وراءه فنكون حقاً تلاميذه.

منشور

كان ذلك في مثل هذا اليوم من عام ألف وخمسمائة وسبعة عشر...
المكان مدينة Wittenberg في مقاطعة سكسونيا الواقعة الآن
ضمن حدود المانيا الشرقية... كانت الشمس في ذلك النهار قد عادت
لتجمع أشعتها المبعثرة وراح الظلام الدامس يخيم على شوارع المدينة
وأزقتها... غط الجميع في نوم عميق فخلت الطرقات من المارة
وخيمت على البلدة سحابة من الصمت والسكون.

وفجأة سمع صرير باب ضخم يفتح، تسلل منه راهب بدين
راح يقطع الطرقات المقفرة راكضاً باتجاه مركز المدينة...
اقترب الراهب من ساحة المدينة ومر من أمام تلك البئر الجاثمة
هناك ليقف أخيرا أمام كتدرائية المدينة العظيمة. جثا الراهب
عند درجات الكتدرائية وبعد أن رسم علامة الصليب على صدره
صعد تلك الدرجات الأربع ليقف أمام بوابة الكتدرائية.
وهناك وبينما أنفاسه تتراكض ودقات قلبه تتسارع مد الراهب
يده في جيب سترته ليخرج منها منشوراً كبيراً كتب باللغة
اللاتينية ...أمسك الراهب بذلك المنشور بيده اليسرى بينما
امتدت يده اليمنى لتثبت ذلك المنشور على باب الكتدرائية.

بقي الراهب منتصباً في مكانه لبضع ثوان وكأنه أراد التأكد من أن
المنشور قد ثبت في مكانه ولن يتزعزع. وبعد أن ألقى عليه
نظرة أخيرة نزل درجات الكتدرائية واختفى في ظلام الليل ليعود
من حيث أتى...

لم يطل ظلام تلك الليلة إذ سرعان ما بزغت شمس الحادي
من نوفمبر مبشرة بحلول عيد جميع القديسين.
وتوافدت جموع الحجاج المسيحيين من كل حدب وصوب إلى مدينة

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإيجيلية اللوثرية في عيد الإصلاح بتاريخ ١٩٨٨/١٠/٣١.

Wittenberg لتشترك في صلاة العيد في كتدرائية المدينة...
وما أن وصلت طلائع الحجاج إلى باب الكتدرائية حتى فوجئوا بذلك
المنشور المعلق هناك...

قرأ الحجاج المنشور بل قل لقد التهموه التهاماً فسرى في
نفوسهم سريان النار في كومة قش... وتناقلت الألسن خبره
فذاع وشاع وانتشر... وبين ليلة وضحاها وبلا تلفاز
ولا مذياع ولا جرائد سرى ذلك المنشور الغريب، منشور
الراهب مارتن لوثر...

أجل، أيها الأحباء، لقد بدأ الإصلاح بمنشور واحد علقه الراهب
الكاثوليكي مارتن لوثر على أبواب كنيسة Wittenberg...
منشور واحد غير تاريخ الكنيسة وتاريخ أوروبا بل وكل تاريخ العالم...
منشور واحد أخاف حكام روما أكثر من مئة جيش ومئة كتيبة...
منشور واحد ارتعب منه باباوات روما أكثر مما قد يرعبهم ألف حصان بألف فارس.

لكن لماذا كل هذا الخوف والرعب من ذلك المنشور؟
خافت روما منشور ذلك الراهب لأنه دعا فيه إلى انتفاضة شعبية
عارمة...أجل نادى لوثر بضرورة حدوث انتفاضة في حياة الأمة وانتفاضة
في حياة الكنيسة وانتفاضة في حياة الفرد.

فالأمة كل أمة بحاجة مستمرة لأن تنفض عن ظهرها معالم الظلم
والجهل والطغيان... الأمة كل أمة بحاجة ماسة لأن تنفض عن
نفسها روح التعصب والضغينة والأحقاد...

والكنيسة كالأمة بحاجة دوماً إلى انتفاضة وإصلاح...
ما أشقى الكنيسة التي تظن أنها قد وصلت وصارت تناطح السحاب،
ما أشقى كنيسة تعيش في وادي الأحلام فتظن أنها لم تعد بحاجة
إلى إصلاح...

فالكنيسة ستظل بحاجة إلى إصلاح بعد إصلاح، ما دامت على هذه الأرض
كنيسة القرون الوسطى كانت بحاجة إلى إصلاح وكنيستنا اليوم بحاجة إلى
إصلاح كهنتنا وأنا منهم بحاجة إلى إصلاح...

شعبنا وأنتم جزء منه بحاجة إلى إصلاح، مؤسساتنا ومدارسنا وشبيبتنا كلها بحاجة إلى إصلاح...
كنيستنا بحاجة إلى انتفاضة لتنفض عنّا خطايا عديدة، فنتخلص من رواسب الصراعات الذاتية المختلفة والأحقاد الحزبية المختلفة والضغائن الطائفية المختلفة. ليس عيبا أن ننتمي إلى كنيسة بحاجة إلى إصلاح، لكن العيب كل العيب أن نبقى كما نحن وحيث نحن رافضين إجراء تعديلات وإصلاحات.

وأخيرا نادى لوثر بضرورة حدوث انتفاضة مستمرة في حياة كل فرد، لذلك كتب في الحجة الأولى من منشوره بأن الله يريد أن تكون حياة المؤمن حياة توبة مستمرة. فالتوبة هي انتفاضة، فيها ينفض المؤمن عن قلبه شوائب الخطية.

أيها الأحباء، من منّا يتجرأ أن يدعي أنه لم يعد بحاجة إلى انتفاضة روحية؟ من منّا يتجرأ أن يدعي بأنه ليس بحاجة إلى توبة قلبية حقيقية؟

بشارة الإصلاح هي دعوة لكم يا من تعبتم من ثقل خطاياكم،
بشارة الإصلاح هي دعوة لكم يا من يئستم من أفكاركم وحياتكم،
بشرى الإنجيل تقول لكم بأنه ما زال هناك وقت للتوبة،
ما زال اليوم متسع من الوقت لتتخلصوا من ذنوبكم وتنفضوا عنكم أعباءكم.
بشرى الإنجيل تؤكد لنا اليوم بأن الله سيقبل توبتنا إن كانت صادقة،
أجل سيقبل الله توبتنا رغم ضعفنا وآثامنا وذلك إكراما لفادينا
يسوع المسيح، الذي يشفع لنا عند الآب.

في هذا اليوم دعونا نردد مع المرنم قائلين:

أتوب فتوّبني	أعود فرجّعني
إليك لا سواك	استرني بدماك
أتوب أعود أتوب	إليك لا سواك
أنت يا من فديت	نفسي بالصليب
وعن خطيتي	ذقت الموت الرهيب
كيف أنا أحزنت	روحك حبيبي
أمامك أعود	ولأجدد العهود

آمين

هيروشيما والجلاء عن غزة

أشعياء ٢٩: ١٧-٢٤

كان ذلك صباح السادس من آب عام ١٩٤٥
في الساعة الثامنة والربع صباحاً، وعلى ارتفاع خمسمائة وثمانين متراً عن سطح الأرض، انفجرت أول قنبلة ذرية من صنع الإنسان فوق قلب مدينة هيروشيما. سحابة سوداء على شكل نبتة الفطر راحت تغطي سماء المدينة وفي ثوانٍ اختبرت البشرية قوة وبطش هذه القنبلة الجديدة والتي تم صنعها في الولايات المتحدة من قبل قلة من العلماء كان منهم ألبرت اينشتاين وعلماء يهود ألمان وآخرين بالإضافة إلى آلاف من العلماء الأمريكيين. كانت القنبلة قد طورت بالأساس للقضاء على الحكم النازي في ألمانيا. ولكن في منتصف عام ١٩٤٥ كانت ألمانيا قد ضعفت كثيرا، فلم يعد داع أن تسقط القنبلة في القارة الأوروبية، فتقرر أن تسقط على مدينة هيروشيما لأن في هذه المدينة كان مقر القوات اليابانية الغازية والتي كانت تحتل كوريا والجزء الجنوبي من الصين. وإن سقوط القنبلة على اليابان، إنما كانت رسالة موجهة إلى روسيا والتي أخافت الولايات المتحدة من أن تبسط سيطرتها على شرق آسيا فأرادوا ردعها.

مع إلقاء القنبلة الذرية انتهت الحرب العالمية الثانية حاصدة أكثر من خمس وسبعين مليون نسمة، لتبدأ معها الحرب الباردة والتي استمرت حتى سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩م, ما حدث في هيروشيما يندى له الجبين، صنعت القنبلة جحيما في الأرض إذ بلغت درجة حرارة المنطقة التي سقطت بها حوالي ٥٠٠٠ درجة مئوية ما يزيد عن المئة ألف نسمة أي مثل عدد سكان مدينة بيت لحم تبخروا في خلال ثوان.

في متحف ذكرى السلام في قلب مدينة هيروشيما يرى الزائر عتبة حجرية لأحد البنوك، في ذلك اليوم المشئوم جلس أحد اليابانيين على عتبة البنك ينتظر بفارغ الصبر أن يفتح البنك أبوابه، وعندما ألقيت القنبلة لم يتبق من ذلك الإنسان ومن الكثيرين من أمثاله سوى بقعة داكنة على تلك العتبة، الإنسان

---

* عظة ألقيت في كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في آب ٢٠٠٥.

تبخر لم يبق عظم من عظامه أو سن من أسنانه أو شيء يذكر به أو بحياته. الأنهار السبعة التي تخترق المدينة تلوثت مياهها بالإشعاعات النووية وعندما رمى اليابانيون بأنفسهم في مياه النهر هربا من حرارة الجحيم ماتوا من شدة حرارة المياه ومن تلوثها فطافت جثثهم على سطح المياه

جميع البيوت وعلى مساحة كيلومترين تهدمت بالكامل إلا الربع من البيوت صمدت جدرانها أمام هذا الانفجار الضخم. بقية السكان الذين كانوا في أطراف المدينة أصيبوا بعاهات جسدية ونفسية لا يستهان بها وقضى الكثيرون منهم بسرطان الدم الذي سببه الإشعاعات النووية. حصيدة القنبلة الذرية: تحول البستان الياباني وعرا، وكسرت شوكة الإمبراطورية اليابانية التي راحت تروع جيرانها من كوريين وصينيين، مستعبدة إياهم ومسخرة نساءهم.

من رأى هيروشيما أنقاضاً في أنقاض لما ظنَّ يوماً ان هذه المدينة ستقوم من كبوتها وتنهض من ركامها. من رأى الإشعاعات النووية تلوث الأرض والمياه لما ظن يوماً أن شجراً سينمو بعد ذلك اليوم. ولكن بعد بضع سنوات قامت هيروشيما من بين الركام وتحول مكان الجحيم إلى بستان تجري فيه الأنهار ومكان الأنقاض شيدت ناطحات السحاب. وبدل مقر قوات الاحتلال أنشأت مدن تنادي بالسلام. لقد ذاقت أهوال الحرب واختبرت معنى الدمار فكرست المدينة حياتها للسلام وللقضاء على أسلحة الدمار الشامل وللتخلص من القنابل الذرية والتي يزيد عددها اليوم عن ستة آلاف. هذه الآلاف الستة من القنابل الذرية تكفي للقضاء على الكرة الأرضية لعدة مرات.

إنه لمن الأمر المخيف أن تكون إسرائيل خامس أكبر قوة نووية في العالم وأن تكون القنابل الذرية لا تبعد عن المدينة أكثر من كيلومتر هوائي وذلك لأن موقعها في ديمونة في صحراء النقب.

من رأى هيروشيما يدرك أن لا يأس مع الحياة وأنه مهما قوي طغيان الإنسان واستبداده فإن الميل إلى الحياة أقوى. وحتى لبنان المعاصر والذي دكت قلاعه الحرب الأهلية ها هو ينهض منتصب القامة ومرفوع الرأس. وغواتيمالا التي نستضيف منها اليوم باقة من الشباب، هي أيضا عانت من حرب أهلية لمدة زادت على الثلاثين عاماً دمرت فيها البلاد. ولكنها رويدا رويدا استفاقت من كبوتها وراحت تبني بلادها حجراً ب على حجر وها هم أبناؤها اليوم يتعلمون مهارات صنع السلام.

التحدي الأكبر أمامنا كفلسطينيين اليوم هو غزة. غزة هي التحدي الأكبر فأكثر من ثلثي سكانها من اللاجئين وهي من أكثر الأماكن اكتظاظاً في العالم. هي مدن دمرها الاحتلال فهل ستنهض من ركامها؟ وهل سيستطيع الفلسطينيون أن يبرهنوا لأنفسهم أولا وللعالم ثانياً أنهم على قدر المسئولية وأن بإمكانهم أن يحولوا الوعر إلى بستان. إذا نجحنا في غزة نجحنا في كل مكان! وإن فشلنا هناك سينتهي بنا المطاف إلى مزبلة التاريخ.

كلمات الكتاب المقدس تحثنا على الأمل. مدينة هيروشيما بآلامها تبث فينا آمالا. لبنان وغواتيمالا هما لنا مثال على أن الحرب مهما طالت فمصيرها إلى الزوال. ولكن ما هو دور الإنسان من كل هذا؟

دورنا أولا أن يكون هناك استقلال في القضاء وعدالة في الحكم ومسألة وشفافية في كل المجالات. دورنا ثانياً أن نعمم ثقافة السلم والبنيان لنستبدل بها ثقافة العنف والهدم وسباق التسلح والطغيان.

دورنا ثانيا أن نربي أبناءنا على مخافة الله ومحبته. فالله هو مصدر الأمل وهو منبع السلام وهو الذي يعطينا تلك القدرة لنحول بالإيمان والعمل الوعر بستانا والدمار بنيانا والأرض المحروقة إلى جنات تجري من تحتها الأنهار.